المحال ثم التفت الى جهة الغرب لعدم اهتمامي بما سمعتهُ واذا مدٌّ من الاخضرار يتموّج من جانب الافق وكانهُ يهم ان يندفق على كل تلك القفار اليابسة فشملني العجب للحال واخذت اتشخص في هذا المظهر العجيب ذي الجمال الغريب وبعد ان تفرست قليلاً سمعت صوتاً يدوي من خلال الغمام وينادي قائلاً ابشري ابشري يا برية ارام القديمة وافرحي وابتهجي ياشهباء سوريا فها العناية الملوكانية مقبلة اليكِ والمراحم السلطانية هاجمة عليكِ فلا عاد يفترسكِ المحل او يهتك بكِ الاهمال فلما سمعت هذا النداء الكريم طفقت ارجف من شدة سروري وفرحي وقلت لاشك ولا ريب في قدوم الخير والرخاء الى هذه الديار المستعدة لقبول كل اصلاح لانها قد وقعت تحت انظار عناية حضرة ذي الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان دام ملكهُ مدى الدوران وقد تشرفت بنعمتهِ وجودتهِ * وما شملني من الاندهاش اثبت نواظري في متن الافق وبينما كنت متخصاً فيهِ رايتهُ قد استحال الى بحر من النور الساطع واخذ يتلألأُ كالشمس الضاحية في السماء الصاحية واذ لم يعد يمكنني النظر الى هذا المشهد المنير اغمضت اعيني على غشاوة الانبهار واخذت اضرب في اودية الهواجس ولما فتحت اجفاني وجدت نفسي مضجعاً على فراش النوم تحت سماء اليقظة

الحركة لانني لم اعد اشاهد شيئًا مما كان اذ وجدت نفسي منفردًا في برية منخفضة لا نبات فيها ولا حيوان

وعندما اجلت نظراتي في اقطار هذه الفلاة المقفرة اخذتني رعدة الخوف والهلع وشملتني شمول الكمود والكآبة وعدت حائرًا في امري فسكوت الموت كان يحوم على هذا القفر الوجوم ولم يوجد فيهِ من الكائنات سوى اتربة تبعذرها ارجل الرياح . وحصباء توهم فراش بحرٍ جاف . وصخور تشهد على قساوة الزمان وكان الشفق كالحديد المحمي يتطفا على كور المغرب بمنظر يستفز الكروب ويستهز الرعشة * ولم يكن مسموعًا في هذا الغور الراسخ في حضن الوحدة سوى نعب البوم وصراخ ابن آوي وكلما كنت اثبت تاملي كان يتزايد في باطني حراك الكمد والكرب وكلما اطلقت انظاري الى السماء لانال تعزية رددتها ممتلئة من البهتة والجمود لانها ما كانت ترى سوى سحابات متوقدة تندفع من الجنوب الى الشمال طارحة على الارض نارًا ودخانًا * وبينما كنت اردد افكاري في هذا المشهد الصامت واسرح نواظري في هذه البيداء المجدبة واذا تل مرتفع يلوح لي فسرت اليهِ وصعدت على قمتهِ ووجهت وجهي الى جهة المشرق حينما كان القفر يسبح تحت اعيني في تيار الظلام . واذ اعطيت صغيًا سمعت صوتًا ينادي من بعيد هكذا * هذه برية الشهباء فاتبشر بقدوم الخير * فقلت في نفسي من ابن سياتي الخير الى هذه القفار المجدبة والساقطة من اعين العناية منذ الف سنة فاكثر ان في هذه البشرى ضربًا من

كان الواجب ان يحكم عليها كما حكم على اولئك القوم وان تعامل بالطرد المطلق نظير قائد الكذب

لاعاش من للعهد خان خونا ... وبئس وغدٌ لايصونَ صونا
جرى امامي الدهر فاتبعتهُ ... عسى ارى خلاًّ فما وجدتهُ
صحبت نذلاً يستدرّ ودّي ... وهو مولعٌ بنكثِ عهدي
قدكان يدعو نفسهُ رب الوفا ... والآن في ذكري يهز الكتفا
اظهر لي الود ليجني زهري ... ومذ تولاهُ لوى بالظهر
فصار قمحي عندهُ زوانا ... ودرري اضحت لهُ ادرانا
عن مثل ذا داود قد تنبا ... قد اكلوا خبزي وداروا العقبا
لابارك الله لذي الخيانة ... ولا رعي من لا لهُ امانة

الفصل الثامن

اليقظة

واذ اتم الفيلسوف كلامهُ حنى راسهُ لدى المنتصب الملوكي ونزل من فوق الصخرة وبينما كان السكوت يحكم في المرسح لمعت بارقة تخطف الابصار واعقبها رعدٌ يزعزع اركان القلوب فسقطت على الارض ارتياعًا ودهشةً . وبعد زوال هذه الوثبة الجوّية نهضت من سقطتي لارى ماذا جرى فغشّى نواظري ضباب التحير ولبثت عديم

وعبداً لك يا قائد الكذب والنفاق

ولما كان الطبع البشري يانف ويستنكف جدًّا من تكلم الخلاف ولا يميل الاَّ الى صدق المقال واثبات الحقيقة كان الانسان الذي لا يصدق بلسانهِ ولا يستقيم بجنانهِ مكروهًا حتى من نفس طبعهِ ايضًا على انهُ يرى طبعهُ مضادًّا طبيعتهُ فيكره نفسهُ

فيجب على كلٍ من الناس ان لا ينقاد الى حكم هذا الروح الشرير منذ نعومة اظفارهِ عندما يكون التعوّد سهلاً وان يرفض كل تلفظ ينسب اليهِ مهما كان وهنًا لان الذي يبتدئ بالصغائر قد تهون عليهِ الكبائر والذي يفكر في القليل يتصل الى الكثير لان الفكر من شانهِ ان يطير باجنحة ادنى تصوّر الى قبة فلك التصوّرات حيثما لا يوجد نهاية ولا قرار

وهكذا فلا جناح على ملك التمدن اذا كان يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب لانهم يسعون في خراب مملكتهِ بما تترك السنتهم المنافقة من الاضرار الكلية والجزئية كاثارة الفتن والقاء الفساد وتبغيض المحبين واغراء ذوي الغفلة والسذاجة ونحو ذلك فهذه جميعها اطوار تعارض سير التمدن وتباين آرابهُ ولا تتفق مع نزاهة الطبع الانساني بما فيها من الآثار الذميمة فلا ظلم اذا طرد قائد الكذب والنفاق طردًا مطلقًا لعدم نفعهِ في شيء واقامة الصدق والحق مكانهُ

ولما كانت الخيانة قائدة كل هؤُلاء القواد وحاملة بيرقهم الاسود واصلاً تتفرع عنهُ اكثر الخصال الناقصة والصفات الغير صافية

يجب طردهُ من عالم الآداب والتهذيب وكسر شوكتهِ وبكل حقٍ يتعين النفار عنهُ واجتنابهِ على من ليس يرضى بهتك اسرارهِ وخفياتهِ ولا يوجد اصعب على الانسان من وقوع اعمالهِ السرية في السنة العامة واظهار عيوبهِ. ولو امكن وجود انسانٍ خالٍ من النقيصة لحق لهُ ان ينتقد نقائص غيرهِ ولكن يمتنع وجود ذاك فلا حق في الانتقاد لهذا

ولما كان السقوط المطلق لقائد النميمة قد يفتح طريقاً لهجوم الاشرار على عمل العيوب بدون خشية كشف النقاب الذي يردع كثيرين عن الكبائر بلجمهِ جماح الشهوات كان الافضل ان يبقى لهُ صوت في آذان العموم لاجل التهديد ولكن بشرط ان يكون زمامهُ محفوظاً في يد الكتمان

الكذب والنفاق

اما انت يا قائد الكذب والنفاق فلا تعتبر الّا كهادم لمباني الآداب الانسانية ومفسداً لصلاح الغريزة ومستعبداً لحرية الفطرة لانك متى اوقعت احكامك على احد احدثت فيهِ بلبالاً عظيماً ظاهراً وباطناً اذ تجعلهُ الخصم الالدّ لضميرهِ كلما فتح فاهُ . وتبقيهِ اضحوكةً في افواه سامعيهِ فتكسبهُ العار والفضيحة حتى انهُ يعود متقلباً على جمر الندم ومشمولاً بقنوط النفس كلما خلا في نفسهِ وتبصر بما انشأ لسانهُ من الاكاذيب والنفاق في مسامع الناس وبما سيرد عليهِ من التكذيب والاذلال فيثنني مصمماً ان يحفظ لسانهُ من شين المين ولكن غلبة الملكة لا تسمح لهُ بذلك ما لم يحتمل مشقة عظمى فيعيش اسيراً

حذراً من انغلاق ابواب السلام او انطلاق اشواط التهافت ولكلٍ وقت واوان

النميمة

مالي ارى هولاء القوم يرشقون هذا الشخص السابع بنظرات النفور والاشمأزاز ويبعدون عنهُ كانهُ جيفة نتنة او جرب معد وجميعهم يومؤن اليهِ بالبنان ويتوامرون ولماذا كل يظهر اشارات الخوف منهُ والابتعاد ولماذا قد اطبق الجمع على اجتناب هذا الرجل المسكين حتى لم يعد احد راضياً ان يكلمهُ او يلقي عليهِ السلام فليت شعري هل هذا رجل النميمة حيث لايوجد من يستحق معاملة كهذه سوى النامين

نعم هذا هو رجل النميمة وقائدها ولذلك يتحاشاهُ جميع الناس ويبتعدون عنهُ غاية الابتعاد حذراً من اثارهِ الرديئة واطوارهِ الذميمة لان دابهُ ان يهتك حرمة الاسرار ويكشف الستر عن معائب البشر ويظهر كل الاعمال الصائرة منهم سراً حتى انهُ يفعل هذا مع اخص اصدقائهِ وربما تعمد ان يصاحب احداً ليطلع على خفيانهِ بالاستيداع ثم يذيعها بالنميمة . ولا يبالي من ارتداد وجعهِ على راسهِ في احوال شتى وذلك عندما تستقر الخيانة فيهِ فيستوجب لعنة الجماعة ويعاقب بالصد والجفاء مثل الافعوان الاسود الذي اذ يلسع تنسحق انيابهُ ويسيل منها سم فيمتصهُ فيموت

فلا شك اذاً في عظم اضرار هذا الروح الخبيث وبكل عدل

الضرر ولكن يجب ان تكون ملحوقًا باوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة ما بين التبذير والبخل

الضغينة

مَن هذا الرجل المنتصب تلقاء عرش التمدن ذو الاسنان المكزوزة والاعين المتوقدة بالشرر. من هذا الواقف وقوف النمر المستعد للوثوب على الفريسة . هل هذا هو قائد الضغينة * نعم هذا هو قائد الضغينة المستعد لان يغدر بكل من بمحضة السلام وبركن اليهِ

فما انت يا ايها الروح الحقود سوى عذاب اليم للارواح لانك متى اوقعت اماراتك في احد اعدمتهُ الراحة والسكون وجعلتهُ كالوحش الحائم على ما يفترسهُ فلا ينام الاَّ على فراش الغضب ولا يستيقظ الاَّ باعين الانتقام ولا يروي الاَّ بكرع الدماء . ولا يجد في نفسهِ حركة حرة لانهُ يقضي الليل والنهار مملوكًا لخلقهِ وماسورًا لحب انتقامهِ وواقعًا في خطر مبدآت كفايتهِ . وهكذا فيعيش عبدًا واسيرًا لاطوارهِ ومعادًى ومباعدًا من معاشرة الذين يستلمحون طلائع هجماتهِ فيجتنبونهُ

فلا ريب اذًا في اضرار هذا الروح لائتلاف البشر اذ انهُ يوقع النفار ما بينهم ويبعد بعضهم عن بعض خلافًا لما يطلبهُ ميلهم الى الالتئام في دائرة التمدن توطئةً للاعتضاد في الانتفاع فمن الواجب والحالة هذه ان يكون الصفح مرافقًا قائد الضغينة ورادعًا جماحهُ كما يجب على الضغينة ايضًا ان ترد اندفاع الصفح في بعض الظروف

حركة الاشغال بجذبك كل الاموال من ايدي الناس وتعود منفردًا بالسطوة والغنا بعد العمر الطويل

فتبًّا لهواجسك و بعدًا لمقاصدك وسحقًا لك . اما ترى كيف تخفق على البشر اجنحة الموت بينما يكونون غارقين في لجج مطامعهم وتاهباتهم ورانعين في حدائق افراحهم ومسراتهم اما تعلم ان السارق قد ياتيك من حيث لا تعلم اما يلوح في راسك المتلي من افكار الثراء مساء فكرٌ واحد بامكان انحداره في حفرة الثرى صباحًا . ولماذا هذا البخل الكثير وذاك العناء الغزير . وهبك ملكت خزائن الملوك وجمعت كل ثروة العالم اليس مصيرك الى الزوال والفناء وانت حامل على ظهرك كل تلك الاحمال الثقال وهل يمكنك ان تمد عمرك الى امد اطول مما تقتضيهِ الطبيعة . وهل تستطيع ان تردع بقوة اموالك مسير المركبات الى الانحلال . فسوف توجد راحتاك المنقبضتان على كل تلك الكنوز التي جمعتها بالوهم منبسطتين اشارة الى خروجك من هذه الدنيا بلا شيء . وربما لا تجزى ممن يرثك بسوى اللعنة ولو كان ابنك الحبيب الذي بهِ سررت

فلا يعتب العالم اذًا اذا اثار عليك الفتن يا قائد البخل وارتفعت اصواتهُ ضدك وتبادرت قواتهُ الى الفتك بك لانك انت العدوّ المبين لهُ ولكل صوالحهِ وانت المصر على هتك ستار هيئتهِ واستعباد قلوب ابنائهِ بجشرك أهم ادوات مدارهِ * ومع كل هذا فلا باس من ترك ظفرٍ لك في جسد التمدن لتكون مانعًا لهجوم التبذير الكثير

والاخرة * وكم تهجس على مضجعك في امر التوفير وتتصل به الى حسابات وكميات تفوق طور الادراك مرتقيًا في سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول في ضميرك. انني من الغد ساشرع في تنقيص كمية اللحم والبقول والزيوت وفي اجهاد الاولاد في تتميم الاعمال الخدمية استغناءً بهم عن الخدم. ولم ازل انقص مقدار الطعام واعوّد الاولاد على الخدمة حتى نصير اخيرًا قابلين ان نعيش على النزر من الخبز والقليل من الجبن او الزعتر وقادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة. وبهذا العمل يمكنني ان اجمع كل مال العالم. لان درهمًا ودرهمًا درهمان. ودرهمان ودرهمان اربعة دراهم. واربعة دراهم في اربعة دراهم ستة عشر درهمًا. و١٦ × ١٦ = ٢٥٦ و٢٥٦ × ٢٥٦ = ٦٥٥٣٦. وهكذا ترتقي من المضروب الى المضروب فيهِ الى ان تبلغ الحاصل الاعلى حيثما لا يوجد رقم ولا يجري قلم. وحينئذٍ تاخذ نفسًا وتقول ها انا مزمعٌ ان املك العالم باسرهِ واوقف كل دواليب الاشغال واجعل الناس عبيدًا لي

نعم ستفعل هكذا يا هذا البخيل ولكن بعد الوف من السنين اذا لم تمت بداء التكميل. فليعش راسك الكريم ولينجح مقصدك العظيم. ولا عتبَ عليك اذا فكرت في نفسك هكذا لانك ترافق القمر في مشروعهِ فكما ان هذا الجرم يخال انهُ سيوقف دوران الارض بعد عددٍ من الوف الوف من السنين لا يحصى. وذلك بتاخير جاذبيتهِ لحركتها ست ثوانٍ في كل جيل هكذا تخال انت ايضًا انك ستوقف

والشح وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات فانت مستوجبٌ ان يحكم عليك بالخذل والرذل بدون تردد لانك تود ان ينغلق كل باب لتقدم الخلائق وتنفتح كل سبل التقهقر * فتخزن الاموال ولاتدع لها منفذاً اما تعلم ان العطاء ينهج طرق الخير ويسند اخاك الجائع * وتكنز الدنانير والدراهم في اعماق الصناديق حذراً من ان يلامسها الهواء او يمسها الضياء . اما تدري ان الدراهم قد صارت الان محوراً لمدار عالم المعاطاة وان حجزها يضيق دائرة العلاقات البشرية ويعيق تبادل المعاملات * وتطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس وتميل عن كل عمل كريم اوسمة تقتضي بذل الورق . اما تعرف ان العضد الاعظم لترتيب حياتك يوخذ من مثل السائلين والمحتاجين . فهم يبنون دارك وحانوتك . وهم ينسجون ثوبك ورداءك . وهم يجهزون كل ادوات طعامك وشرابك . وهم يتسارعون اليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات المختلس وهجمات العدو . وهم يمدون ايديهم ليرفعوك لئلا تعثر رجلك بحجر . واذا انتشبت حريقة في منزلك القوا ارواحهم لينقذوك واولادك ويحموا امتعتك . فلماذا تدوس في اعناقهم اذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون اسعافًا . ولماذا تعرض عنهم وتشتمهم اذا مدوا ايديهم اليك ليطلبوا سداد رمقهم حتى اذا امكن للالحاح ان يقتلع من فولاذ يدك بارةً واحدةً استشعرت بالم اقتلاع الضرس . ولماذا تعصى الآمر باشباع الجائع وستر العريان . اما تخشى وقوعك في ثورتي الدنيا

التي ينجم عنها فوائد جزيلة لترقية الجمعية كالهجوم على درس العلوم وتنشيط الاشغال وتنبيه القوى الاختراعية ونحو ذلك : ولكن يجب ان يُرفق هذا القائد بالرضا والقناعة ويكون خاضعاً لهُ لكي يمتنع ضرر ذاك ويقوم نفع هذا فتحصل المغايرة

البخل

هوذا ضجيجٌ عظيمٌ آتٍ من كافة اقطار الارض . صراخٌ شديدٌ يدوي تموّجهُ في المسامع فاميلوا آذانكم يا قاصدي التفتيش. واصغوا لنرى ما هذه الضوضاء الآتية من بعيد وعلامَ ذلك الصياح المرعد * ها قد بدا يلوح لي ان فتنةً كبرى تثور في العالم ; نعم فتنة كبرى اخذةٌ في الثوران لان اصوات لعنات وشتائم تتوارد الى آذاني محمولةً مع طلقات الضجيج * فما سبب هذا الافتتان العظيم وعلى من يدور مدارهُ * لعل ذلك على البخل لان اكثر تلك اللعنات والمسبات تنطبق على اسمهِ كما تسمعون . بلى على البخل على البخل . ولا يوجد ما يستحق نهوض العالم لضدهِ نظير البخل لانهُ يجتهد على الدوام ان يحتشد ارزاق البشر ويحشر قوت العباد احتشاداً وحشراً يوجبان خلل النظام العام واستعباد الانام

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم وهو قابض بيديهِ على ساعد دولاب المعاملات ومساعد قيام الحياة فلنوجه خطابنا اليهِ قائلين

ها قد نهضت المسكونة عليك يا ايها الروح الخبيث قائد البخل

لا تسد يك سوى التقلب على النار الدائمة في الدارين. ولا تجد يك سوى قلق الفكر وعذاب النفس والتنهدات والحسرات . وتجعلك مضغةً في افواهِ الناس ومهلاً من الجميع

ولا يخفى ما يترك الحسد والطمع من الشوائب الذميمة في الانسان وذلك نظير البغض والحقد والحنق والاختلاس وحب القتل والاضرار. وكلٌ من هذه الاطوار الرديئة يترك وراءهُ اطوارًا اخر اشد رداءةً الى ان يصبح الحاسد مؤلفًا من كافة الارواح الخبيثة . فلا بدع اذا كان الحسد يشبه الشجرة الهندية التي كلما وصل غصنٌ منها الى الارض نبت وصار شجرةً وهكذا الى ان تنقلب اخيرًا الى غابة عظيمة تعشو اليها طيور السماء والهيرودي يسكن في مقادمها

فلا يوجد شيءٌ اشد مقدرةً على استعباد النفس من الحسد والطمع . فان هذا الروح اذا تمكن من الانفس اوثقها بجندل العبودية القصوى لسلطان الانفعالات وقيدها عن التمتع بادنى لذة ادبيَّة فتبقى مرتجفةً بين فواعل الشهوات كارتجاف العصفور بين مخالب العقاب فاقدة كل سلامة الحواس اذ لا تعود ترى سوى تناثر شرر الاضطراب والطموح ولا تسمع سوى دوي اصوات القنوط والاكدار ولا تذوق سوى حرارة الاميال والآلام ولا تشم سوى رائحة الزهاق العصبي ولا تلمس سوى خشونة الاشياء التي ليست بقبضتها

ومع ذلك فلا باس من ترك بعض دخل لقائد الحسد والطمع في احكام التمدن لان هذا الروح يقود الناس الى الغيرة والتنافس

الافلاس لكي يفتك باعتبارهم مؤملاً ان يحط عمود ثقتهم بقوة ذلك التشنيع والاشاعة فيسر فرحًا واذا ساقهُ الحديث اخذ يسند غناهم الى عامل الشح والبخل وان كان هو اشح وابخل ولم يزل يتزايد حسداً حتى انهُ ربما لايعود يمكنهُ النظر الى ثوب جديد غير ثوبهِ او طعام لذيذ غير طعامهِ واذا كان عالمًا اوشاعراً اخذ يزدري بمولفات العلماء ويهزا بقصائد الشعراء باذلاً جهدهُ في تحصيل زلاتهم وغلطاتهم على خطاٍ كان اوصواب حتى اذا عثر على شيءٍ من ذلك اخذ بوق الانتقاد وجعل ينشر بصراخهِ كل اموات الغفلة . وربما افضى بهِ الحال الى ان يطرح من يدهِ كل مؤلف او قصيدة ممن سواهُ من العلماء والشعراء ولايتنازل الى القرائة حذرًا من ان يرى فكرًا اجل من افكارهِ او قاعدة لايعرفها . وبقدر ما يرى من سموّ افكار غيرهِ وجمالها يكون اشعارهُ بثوران لهيب غضبهِ وهيجان بركان انتقادهِ وهكذا فقد لايعود لفمهِ امكان ان يلفظ بسوى الشتائم والمسبات التي اخفها قولهُ بجنى . عالك . ركاكه . وذلك بدون ابراز اقل حجة يحتج بها . هذا اذا لم يطرح قياد العلوم والقرائح في عهدة الجنس او المذهب وقس على ذلك سائر المراتب والصنوف من البشر الذين ياخذهم روح الحسد والطمع . فكم يستفز هذا الروح شرورًا وبغضًا بين البشر وكم يهتك بحرمة هيئتهم ويخترق ستار اعتصابهم

فماذا ينفعك الحسد يا ايها الحاسد الجاهل وهل تظن ان هذه السيماء توصلك الى اوطارك وآمالك . حاشا لله . ان هذه السيماء

فما انت يا ايها الروح الشرير الاّ آلة بها يفتك الناس ببعضهم وبها نشأ كل كريهة وعدوان فكم كنتَ سبباً لسقوط ممالكَ وزوال ملوكٍ وعظماء * فبك تشتت قايين اذ اوقعتهُ في معصية القتل. وبك جحدت امرأة لوط اذ اطعمتها بسبر غضب الله. وبكِ طردت هاجر اذ نزلت في قلب سارة وبك طلب يعقوب الفرار اذ اثرت سخط العيس. وبك سقط يوسف في البئر وبيع واسر اذ فشيتَ في ارواح اخوتهِ. وبك زهقت روح شاول اذ ملاتهُ حنقاً على داود. وبك تبلبلت دولة المكدونيين اذ افرغت فيها سمومك. وبك قتل يوليوس قيصر اذ دخلت في قلوب اصحابهِ. وبك وبافعالك قد رجمت الفلاسفة ورذلت العلماء وانخذلت الامة

فكم يجب على البشر ان ينفروا عنك ويبغضوك يا ايها الحسد والطمع لانك تجتهد على الدوام في القاء الحقد والبغض ما بينهم وفي تفريق شملهم اذ تجعلهم اخصاماً واعداء لبعضهم افراداً واجمالاً * فمتى دخلت في قلب انسان جعلتهُ عدوّاً مبيناً لانداده ونازعتهُ الراحة والحرية فاذا كان ملكاً اخذ يضارب الملوك ويشن الغارات عسى ينال المرتبة الاولى على الجميع. واذا كان وزيراً جعل يناكد الوزراء ويوشي بهم عند الملك رغبةً في الارتقاء عليهم واذا كان شريفاً شرع ينم على الاشراف ويستهجنهم ازاء العامة ويقذفهم بكلمات الاحتقار املاً في ان يعمي عيون الناس عن ان ترى شريفاً سواهُ. واذا كان غنياً تاجراً طفق يسخر بالاغنياء التجار ويشنع بهم ويشيع عنهم اخبار

خادم الناس ما دمت كبيرهم ولا تنفعك كبرياؤك عليهم وستحل في قبر النسيان قبل حلولك في قبر الابدان وقد قال قبلك الملك والنبي داود انا داود ولست انسانًا. وان كنت نبيًا فما عندك آية سوى الكبرياء وهذه سيماء الدجال. وان كنت رسولاً فقد كذبت رسلٌ من قبلك. وان كنت من ذوي الفضل والاحسان فهذا من الواجبات البشرية ولا يسمح لك واجبك بالعجب والتكبر على غيرك وان كنت غنيًا فثروتك لنفسك ولا تنفع بها احدًا ما لم تنتفع منهُ اولاً على ان الاغنياء والفقراء متبادلون حقوق المعيشة سواء. وان كنت حيوانًا فانت مخضعٌ تحت قدمي الانسان اذ تكون نعجة او بقرة او احدى بهائم البقاع

ومع ذلك لا ينبغي الرفض المطلق لقائد الكبرياء من مملكة التمدن حذرًا من حصول الدناءة التي لا تليق بالبشر. بل يجب تركهُ مقيدًا بحكم الاتضاع حتى يستوي في كل منهما حقهُ حسبما يقتضي الحال فتكون النتيجة حصول عزة النفس المقبولة في شرائع التمدن وزوال عبودية الاستكبار عن الانفس

تواضع تكن كالنجم لاحَ لناظرٍ على صفحاتِ الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يرفع نفسهُ الى طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ

الحسد والطمع

ها قد وصلنا الى هذا الروح الذي كثر شرهُ وعظم ضرهُ منذ البدء الى الآن اعني بهِ قائد الحسد والطمع كعبة الشقاء وركن الفساد.

اقتضتهُ الحاجة الى السؤال على امرٍ او استفادة شيء ما من احد الناس يقع في حيرةٍ عظيمة واضطرابٍ لامزيد عليهِ ويصير محلاً لتنازع عوامل الطلب والترك اذ يرى لسانهُ منبسطاً الى المطلوب وقلبهُ منقبضاً عنهُ فتثور في جوانحهِ نار الالوهية وياخذ في ضرب الرموز والاشارات على مقصدهِ عسى ينال الجواب والفائدة بدون تصريحهِ بسوال رسمي. واذا اعياهُ بلوغ المراد حاول ان يسبك السوال في قالب قصد التنكير لمعرفةٍ لاطلب التعريف لنكرةٍ دفعاً لنسبة الجهل او الوقوع تحت المنة واختلاساً للفائدة. واذا اوقعتهُ الصدف برافقة احدٍ الى الدخول في مكانٍ ما حاول كل المحاولة ان يتقدم عليهِ ويبقيهِ خلفهُ * وهكذا لايزال هذا المستكبر معجباً بنفسهِ عاقداً حواجبهُ اذ يظن ان السماء تعنو لديهِ والارض تجثو لاقدامهِ مع انهُ يكون بمقتضى هذه الاطوار مبغوضاً وممقوتاً من الجميع ومحلولاً من وثاق الهيئة الاجتماعية التي تتاسف عليهِ جداً كما انهُ هو نفسهُ يندب ذاتهُ ويتاسف على حياتهِ المقيدة بسلاسل العبودية لكبريائهِ اذ يرى حالهُ مقهوراً لطبعهِ ومحروماً من لذات الخليقة ومرذولاً لدى الخلائق ومداناً من الخالق فلا يعتبر الاّ كورقة الخريف المستعدة للهبوط من اعاليها لدى اوهى حركة

فقل لنا يا ايها الروح المتجرف مَن انت وما انت لنعطيك حقك. فان كنت بشراً فما فضلك على البشر. وان كنت ملاكاً فانت ابليس الاستكبار اذ لم تسجد لآدم متواضعاً . وان كنت ملكاً فانت

اخيراً بعدم امكانية الادراك العام فيرجع بصفقة المغبون . هكذا العلم يعرض للدارس حقائق ومبادي اكثر كلما ازداد توغلاً فيهِ الى ان يجزم اخيراً بامتناع الاطلاع المطلق فيرتد ضارباً اسدريهِ اخذاً الجهل عذراً لهُ * فعلى كل حال اذن يجب ان يكون العلم والجهل مترافقين في خدمة مملكة التمدن ولكن بشرط ان يكون الثاني مردوداً الى الاول وهكذا يكون كل منهما عارفاً بواسطة رفيقهِ حقيقة حدودهِ فيلبث الواحد مجداً في تمهيد مسالك العمار والطلب ويرجع الاخر عن المعارضة الى توقيف خطوات الخراب والدعوى بحيث يصير هذا مدركاً حدَّهُ وذاك عارفاً نفسهُ

الكبرياء

اما انت يا ايها الكبرياء فمن ادهى الارواح التي تعبث في مرادها الاجسام . ومن اعظم القوات التي تجعل البشر سالكين تحت نير العبودية لانك تتركهم عديمي الحرية في تتميم مقاصدهم وواجباتهم . فتعدم كلاً منهم جزءًا كبيراً مما يخصهُ من الحقوق على الهيئة التي هي ايضاً تفقد اهم حقوقها على ابنائها بحيث يصير هذا محروماً من التمتع بتمام الالفة والمخالطة وتلك معاقة عما تطلبهُ من الانتظام والالتئام * فهل دخلت يا ايها الروح الشرير في احدٍ الّا وتركتهُ خابطاً في لجة البلبال والتعب وجعلتهُ مرذولاً ومبغوضاً من جميع بني نوعهِ فحيثما جلس راى نفسهُ ارقى من محلهِ واعز من جلسائهِ واذا التقى سلاماً على احدا او تكلم معهُ زعم انهُ صنع تنازلاً عظيماً او منح الفوز الكبير وان

ومع ذلك لا يجب على التمدن ان يستاصل جميع جذورك من ارضهِ يا ايها الجهل فانهُ لا بد من بعض دخل لك في غوطتهِ استدراكاً لشيوع الدعوى بتمام العلم مع ما بين غير اهلهِ شيوعاً لا ينكر ضررهُ لان الانسان المدعي بالمعارف على غير اصل انما ينشئُ اضراراً جمة اذ يزرع في عقول اصحابهِ ورفقائهِ الذين يثقون بهِ قواعد وحقائق كاذبة باطلة وهم ينقلونها الى غيرهم الى ان تشيع وتذيع وربما صارت اساسات يبني الناس عليها ما يفضي بهم الى الضلال والطغيان فيعود مقتضياً لنفوذ انوار الحقائق في ابصار بصائرهم عناءٌ عظيمٌ ويكون سبب ذلك هذر الجاهل المدعي * فيجب اذن للتمدن ان يترك يداً لقائد الجهل في دائرتهِ لكي يوحي اليهِ بواسطة تغلب العلم ان يلطم افواه تبعتهِ ويضع اقفالاً عليها فلا يعودون يفوهون بما يؤذي اذ يصيرون خاضعين لتبعة العلم ومجتهدين في نوال الحقائق قدر الامكان وعارفين انفسهم انهم منتسبون الى الجهل. حتى ان المتوغلين في بواطن الاشياء ايضاً كثيراً ما يلتجئون الى حكم الجهل لكثرة ما يرون من المجهولات التي يفوتهم ادراكها وكلما ازداد الانسان علماً ومعرفةً وجد لحكم الجهل عليهِ اتساعاً وغلبةً لان نسبة ما يمكن علمهُ الى عالم المجهول هي كنسبة ما يمكن للنظر احاطتهُ من البحر الى ساحة المياه جميعها او ما يمكن رؤياهُ من النجوم الظاهرة القليلة الى بقية الاجرام المختفية الممتنع عددها فكما ان كروية البحر ورحابة الفلك تقدمان للنظر امداً وعدداً اكثر كلما ارتفع الناظر وقوّى اسطرلابهُ الى ان يحكم اخيراً

ثم التفت الى قائد الجهل مبتدئاً منهُ وجعل يقول

الجهل

اما انت يا ايها الجهل فمن اخبث الارواح الشريرة التي تفسد في الارض وتعضد يد العبودية وتخرب ابنية العلم. فما انت الا السبب الاعظم لاكثر الوبال الذي جرى ويجري وسيجري في المسكونة. والاصل الاول الذي منهُ قد نشات فروع البدع والخرافات التي تجعل البشر عبيداً لاهوائهم واباطيلهم وتحرمهم لذة حرية الحياة فاذا كانت المسببات تستوجب مقداراً من الجزاء فالاسباب تستلزمهُ مضاعفاً فتكون اذن يا ايها الجهل مستلزماً صرامة الحكم بمقتك من الناس وتبديدك وكسر شوكتك والنفار عنك فانك تعتبر كسبب موجب لتلك الافات المحكوم عليها بالمقت والكراهية منذ بدء الخليقة ويجب على البشر ان يعتنوا باخضاع مملكتك لدولة العلم الذي حيثما نزل انزل المجد والعظمة والكرامة. فبالعلم يجلس الانسان على قمة كمالهِ الطبيعي ويعمل حسب استحقاق انسانيتهِ وبالجهل يهبط الى اسفل السافلين ويتصرف كسائر الحيوانات بذاك تعظم قوّة الممالك وتتبين حدود الملوك وبهذا تسقط القوات ويمد التعدي باعهُ بذاك يقوم اعتبار الشعوب وتنتشر ثروة القبائل وبهذا يخفق جناح الاحتقار وينعق غراب الاقلال. بذاك قد تلألأ محيا الغرب وبهذا قد اظلم جبين الشرق

فكانَّ الشرق بابٌ للدجى   مالهُ خوف هجوم الصبح فتحُ

اشتراني بحيث لا يوجد لي ادنى حرية معتوقة ولا حركة مطلوقة يجعلني مائلاً كل الميل الى الحرية والانعتاق ولو صرت خادمًا باجرة حياتي فقط عند الرعاع . اذن تشتهي الانعتاق . نعم بكل قلبي . فلماذا لا تطلب من سيدك ورقة اعناقك ☆ وهل يسمح لي بذلك ☆ نعم لانهُ يعلم ان الحكومة لا تسمح باخذ العبيد وبانها تلزمهُ بتحريرك الزامًا فاذهب وخذ منهُ ورقة الاعناق واذا منع ذلك فانا المسؤل

فذهب من عندي وبعد ثلاثة ايام اتاني ومعهُ ورقة الاعتاق . فادخلتهُ معي الى المدرسة وبعد مرور خمس سنين خرجنا منها ودخلنا في خدمة دولة التمدن تحت راية جانب السلطان الاكبر وها نحن بين ايديكم نرى اخصامنا باعيننا ووثاقهم بايدينا فاعز الله انصار الحرية وايد دولة الرفاهية

وبعد تتميم الزنجي روايتهُ التي كانت تؤثر في جميع المحفل جاذبة كل الالتفات اليها اخذ السكوت موقعًا نحو دقيقة اذ كانت الملكة تمسح اعينها من الدموع التي استقطرتها رواية العبد ثم التفت وزير محبة السلام الى الفيلسوف الذي كان مضجعًا على الصخرة بدون حراك واوعز اليهِ باشارة ان يرجع الى كلامهِ . ففرك الفيلسوف جبهتهُ المرتفعة وانشا يقول

هذا ما يجب تبليغهُ لآذان ملك العبودية الذي اذا لم يسلك حسب مضمون ما تقرر لديهِ فلا قيام لمملكتهِ ازاء تقدم هذا العصر الجديد فليسمع قوادهُ وانصارهُ ما سيرد عليهم وليركنوا الى الحق ☆

معك * خطفوا معي اخي ايضاً لانني كنت امشي معهُ في البرية واذا جماعة من المصريين دنوا منا وخطفونا وقتلوا والدتنا لانها رغبت انقاذنا

فما عاد لي شك ان هذا العبد هو اخي ذاتهُ وصارت عيني مغرورقة بالدموع وقلبي خافقاً باجنحة الاشواق والفرح ولكنني اجتهدت في اظهار الجلد لاستتم التاكيد فسالتهُ وما اسم اخيك * ياقوت وهو اكبر مني * فقبضت على يده وقلت لهُ اتبعني لاريك اخاك فاخذتهُ الى حجرتي على انفراد وقلت لهُ انا هو اخوك ياقوت فتعانقنا وتباكينا ساعةً حتى اطفانا بماء الآماق نار الاشواق . ثم قصصت عليهِ جميع ما جرى لي من الاول الى الاخر . وبعد ما بلغتهُ ذلك طلبت منهُ ان يروي عليَّ ما جرى لهُ وكيفية وصولهِ الى الاستانة فقال * ان تاجر العبيد في القاهرة باعني الى رجل اسكندراني فذهب بي الى الاسكندرية وجعل يستخدمني في بيتهِ وانا صغير لا اعرف شيئاً سوى اللعب مع الاولاد . ولما بلغت اشدي باعني لاحد الاتراك فاخذني هذا الرجل وسافر بي الى اسلامبول وابقاني عندهُ مدة سنة ثم باعني الى رجل من كبار هذه المدينة وها انا منذ سبع سنين عندهُ وكيف معاملتهُ لك بغاية الرقة واللطافة حسبما تقتضيهِ طبيعة اهالي الاستانة . ولكن مع ذلك ارغب جدًّا اعتاقي لان الفكر وحدهُ بوجودي عبداً او بكوني انا وملك يدي لسيدي وبان حياتي وموتي بين شفتيهِ اويديهِ ومتى شاء باعني ومتى شاء

العربي واحتقاره من جميع الافرنج الذين كانوا يصادفون مركبنا اوا حد ملاحيهِ حتى ان اولادهم يظنون العرب هم نوع منقطع عن الجنس البشري ولا يحسب الأمن جملة الحيوانات. لكثرة ما سمعوهُ من عبارات الازدراء والتحقير من آبائهم * فقلت في نفسي ان الجهل الفاشي في هذا الجنس اوجب انحطاط شانهِ لدى هذه القبائل ولو كان عندهُ مدارس كما عندهم ومساعدون على تقديم العلم ومحبة وطنية منزهة عن اغراض الدين لما اصبح اضحوكة عندهم بل ربما يكون ارقى من جميع العالم علماً لشدة حذقهِ الطبيعي وحزمهِ ولا ينكر الغرب فضل العرب عليهِ * ولما تمكن من فكري خاطر الدخول الى المدرسة بناء على ان كلاً يعمل على شاكلتهِ تركت مركبنا وركبت بحارياً وقصدت الاستانة العلية دار السلام فوصلت اليها . وبعد قليل من وصولي طلبت الدخول في المدرسة العسكرية ففتحت لي الاحضان وشرعت في الدراسة ناسياً كل ما جرى على راسي

وبينما كنت ذات يوم اتمشى على الكبرى وقت الراحة واذا عبد نظيري يقول لي

نهارك سعيد همشري * نهارك سعيد ومبارك

وبعد ان تاملتهُ بامعان شعرت بشرارة كهربائية طارت من دمي وسرت في جميع مفاصلي فسالتهُ

ما الاسم * مرجان. فازددت حنوّاً * وكيف كان مجيئك من بلادنا * بقوة الاختطاف . وهل خطفوك وحدك ام خطفوا غيرك

الوساوس تحوم على خربة راسي من كل جهة حتى صرت اخال نفسي قائمًا في وسط جهنم

ولم ابرح متقلبًا على فراش القلق والارق ضاربًا في اودية الويل خابطًا في لجج الليل الى ان تبلجت كوّة الحجرة بشعاع السحر اذ علمت ان النجم قد غار على جوادهِ الادهم والصبح قد اقبل على صهوة اشقر فقفزت من مضجعي قفز الغزال المذعور ووقفت في وسط المخدع لاجمع شوارد افكاري وانتخب منها ما يرشدني الى سواء السبيل. واذ اولجت يدي في جيبي على غير قصد ابفاء لما تطلبهُ بديهة الهجس فعثرت على بعض قطع من الدراهم كانت مذخورةً لمصروف بيت مولاي فشملني الفرح للحال وقلت في نفسي ها قد تسلمت زمام المستقبل . ففتحت المغلق واطلقت عنان المسير . واذ بلغت باب الدسكرة وجدت الرئيس مدلجًا هناك فطلب مني اجرة المعرس فاعطيتهُ شيئًا من الدراهم وواصلت الجري حتى اصبت الجسر فما لبثت برهة انتقد ذاتي ان رايت ذهبية قاصدة الاسكندرية فركبتها واخذت تفرط زرد الماء لدى مهب الهواء

وبعد ثلاثة ايام بلغنا الاسكندرية فصعدت الى البر وطلبت جانب المينا فصرت هناك عنالاً وبعد مضي خمسة اشهر خلعت ابهة العتالة وصرت ملاحًا في احدى المراكب العربية التي تشتغل في بحر الروم ولكن بعد بضعة اشهر خطر لي ان اترك الملاحة وادخل في احدى المدارس التركية . وما ذاك الالاني صرت اسمع شتيمة الجنس

الضرب * فلما رأيت حياتي وقعت في الخطر رفعتُ مهابتهُ من قلبي وهجمت عليهِ غائباً عن الرشد والحس وواقعاً في الياس فمسكتُ يديهِ بقبضتي ودفعتهُ على الحائط دفعاً شديداً ورفست بطنهُ برجلي حتى كدت اخترط امعاءهُ وقلت لهُ اقتلك او تطلق سبيلي يااسود الطبع. ولما اخذ يعاركني وهو في غليان الهيجان واغراق الافتتان تناولت الحبل المعدّ لي وشددت بهِ يديهِ ورجليهِ والقيتهُ موثقاً بدون حراكٍ * واذ نظرت ذلك امرأتهُ واولادهُ اخذوا يصيحون ويضجون ليجمعوا الجيران. ففتحت الباب وطلبت الفرار وابقيتهم في طغيانهم يعمهون

وما زلت اركض هائماً على وجهي حتى بلغت دسكرة فدخلتها وطلبت حجرة للنوم فاجيب طلبي فتوغلت في هذه الحجرة واغلقت الباب. ثم انطرحت على الفراش كالقتيل ولم يكن ما يستنار بهِ سوى سراج طفيف. ومن حيث ان اوجاعي وافكاري كانت في غاية الثوران لم يمكن للغمض ان يمرّ باجفاني ولم يقدر الارتياح ان ينبث في عظامي. وبينما كنت اتامل السراج الذي كان موضوعاً نصب عيني وانا مشمولٌ بشمول السدَر اذ رايتهُ يتراقص كفرائصي ويخفق كقلبي وما لبث هكذا ان سلم روحهُ فاختطفتني موجة الظلام وابتلعني غمر الدجى واطبقت البئر عليَّ فاها وما كنت ارى سوى ظلمة الموت ولا اسمع سوى رمز الرياح المتلاطمة بين الابنية. فصارت هوام الاوهام يتطاير في حرش مخيلتي تطاير الشرر المنتثر وعادت غربان

الزوايا وصرت من جملة الخبايا

وعند ما انفطر كبد الغادية واسفر البدر عن الاضواء لدى ساعة من هيجان الطبيعة اطلقت اقدامي الى تميم الرسالة فلم اجد الرجل في بيتهِ فرجعت الى سيدي واخبرتهُ بذلك فازبد وارغى واخرنطم وبرطم وحملق عينهُ الاتونية وقال

لماذا تاخرت الى هذا الوقت وتركتني اموت خوفاً * لان هبوط المطر ادركني في نصف الطريق لذهابي

ولماذا لم تعصهُ كما تعصيني وترتد حالاً ياخبيث * لانهُ يكسر راسي ويهشم عظامي ومتى عصيتك يامولاي وكيف ارتد راجعاً بدون تتميم امرك

اذن انا لااقدر على كسر راسك وطحن عظامك اكثر من البرد وهل جسدك الذي هو ملكي افضل من ارادتي ياعبد السوء ثم هجم الى العصاء مكفهر الوجه والاعين وهو يردد هذا البيت البربري ماضغاً الفاظهُ

لا تشترِ العبد الا والعصا معهُ　　ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

ووثب عليَّ كالوحش الضاري وصار يضربني ضرباً عنيفاً حتى انهُ مزّق جلدي وكاد ينثر لحمي وهو يقول لي بصوتٍ ابح * هربت من غضب الله فابشر بعضبي * واخيراً قلت لهُ اتقِ الله ياظالم اي ذنب جرى مني يستحق هذا القصاص . فاجابني أَ تعنفني ياالسود الوجه اخسَ واخرس * ثم ذهب فاتى بمسدٍ عازماً على ربطي وتجديد

وقساوةً حتى انهُ مرارًا عديدة كان يربطني بالحبال ويجلدني بالصوط لاقل سبب كعدم طيراني كالباشق حينما يدعوني او عدم اجرائي ما يكون في ضميرهِ كالواجب وطالما كان يقول لي اما تعلم اراداتي اما فهمت مزاجي هذا وقد كنت في سن لا يسمح لي بعلم الضمائر الخاص بالله ولا بفهم الامزجة المنوط بالاطباء * ولم ازل صابرًا على هذا العذاب الاليم ومقاسيًا صعوبات هذا المولى الظالم حتى بلغت الثانية عشر عامًا وخرجت من مجزرتهِ * وكان سبب خروجي انهُ ارسلني ليلةً ما لاستدعاء احد جلسائهِ عنده فخرجت مسرعًا لقضاء امرهِ وكنت في اثناء طريقي ارفع نظري الى الجوّ لاستعلم ابتداء هبوط الامطار لان السماء قد كانت في تلك الليلة موشحةً بالغيوم الكثيفة ومدلهمة على شكل مريع جدًا وكانت البروق تتلوى كالحية الرقطاء وتنشب من سحابةٍ الى اخرى مخترقة اعماق الفلك

فما بلغت نصف الطريق حتى انفتحت ميازيب السماء وانحلّ وكاء السحاب وابتدأ يهبط بردٌ عظيم كالحجارة بحيث صرت اظن ان السماء شرعت ترجم الارض . او الضربة السابعة نهضت من كمين القدم. وكانت اصوات الرعود تزلزل اساسات المسكونة وانتشاب الرياح ينسف الجبال نسفًا فاخذتني الدهشة والرعدة مما لم تعودهُ عيني في تلك الديار لندرة حدوثهِ . فما كنت اشك حينئذٍ ان الخليقة جميعها تموج هلعًا . ولما لم يعد يمكنني المسير خوفًا من سحق حجارة البرَد راسي وتهشيمها عظامي تواريت في احدى

والقزاز اما مقتنصونا فكانوا يزدادون قساوةً كلما ازددنا بكاءً وازدادت والدتنا انتحاباً وملاةً فكانوا يضربوننا ويزجرونها ويلطمونها في صدرها ويرفسونها بارجلهم ويلقونها على الارض وهي لم تزل تندب وتذرف العبرات وتتوسل وتتضرع بايديها وبكل اطوار وجهها وهم لم يزالوا يلطمونها ويصرعونها حتى غشي عليها وانطرحت على وجهها معفرةً وكأن لم يكن بها نفس وما كادوا يبعدون عنها قليلاً حتى انعشتها ارواح الحنية وضوضاء عويلنا فوثبت على اقدامها منهتكة واطلقت المسير الينا ثانيةً فاذ رأوها قاصدة عادة الماضي مدّ احدهم على هذه الامّ المنكسرة الخاطر بندقية واطلق الرصاص في احشائها فسقطت على البساط المقفر وتلوت قليلاً بتنهدات متقطعة وسلمت الروح متكفنة بالرمال . وعندما وقعنا في اليأس من الخلاص صمتنا آخذين الصبر الذي هو سند المصابين عوناً لنا . واخذت الاباطح تسيل باعناق المطايا التي كانت حاملةً كثيرين من بني جنسي قنصاً . ولم نزل نفري بطون السباسب والقفار حتى بلغنا الرستاق المصري اما انا فلم اعلم ذاتي بعد الاّ مسلماً بيد احد تجار العبيد ومنادى على بيعي في سوق القاهرة فاشتراني رجل من الاغنياء وادخلني في داره للخدمة واما اخي فما كنت عالماً ما تم بهِ وكأنهُ صار نسياً منسياً فجعل هذا الرجل يعاملني باقسى المعاملات واخذت اطيعهُ الطاعة العمياء . ولكن لسوء حظي لم تكن طاعتي موجبة لراحتي لانني كلما كنت ازداد نشاطاً وهمة في خدمتهِ كان يزداد صرامةً

جهوري هكذا

انهُ منذ خمس عشرة سنة بينما كنا ذات يوم انا واخي هذا مرجان (واوماً الى الزنجي الآخر) نسرح مع والدتنا في برية السودان على نحو غلوة من قريتنا وكان سني لم يتجاوز العشر وسنهُ لم يبلغ الثمان. واذا بقافلةٍ من فلاحي مصر نظرناها تخب في القفر بين الامواج الرملية المستعرة بايقاد الهجير آخذةً طريق جبال القمر حيثما يتوهم انبعاث النيل. فعند ما نظر الينا بعض الركاب اخذوا يعرضون علينا عن بعد بعض قطع كانت تتلامع باشعة الشمس مظهرين قصد دفعها لنا فهرعنا اليهم حالاً رغماً عن ممانعة والدتنا وقتئذٍ المشتقة عن حدس القلب. واذ دنونا منهم على املٍ قبضوا علينا سريعاً واردفونا على الابل واطلقوا الوخد ضاربين في اودية الرمال فطفقنا نتباكى ونتصايح باسطين ايدينا الى والدتنا التي كانت تولول وتنوح عن بعد بحنين يجرح الفؤاد وتنسف الرمل على راسها وهي تركض لتدركنا زاعمة امكان انقاذنا اما نحن فكنا نزيد في العويل ونبالغ في استنجادها كلما كانت تقرب منا. ولم تزل هذه المسكينة تجهد خطواتها حتى ادركت محلنا فاخذت تترامى على اقدام مقتنصينا سافحة دموعها السخنة وتتملل وتترجى بلغتنا التي لا يفهمونها صارخة بصوت يحرك الجلمود استحلفكم بما تعبدونهُ ردوا عليَّ ولديَّ كرماً لرب النيل اعطوني ولديَّ ولا تتركوني اموت بفراقهما كمداً ردوا عليَّ ثمرة احشائي وانا اعطيكم كلما املكهُ من الخرز

وصرّح بدعوى هذا ودعوى ذاك . فعلى ايّ اساس نبني بطلان
العادة الآخذة مبداها من سالف الحقب . وذاك يقول. بكل حق
يجب نسخ هذه العادة الخشنة التي ينفر منها الطبع الانساني .ولايجوز
التعبد لسوى الله الذي هو قال (للرب الملك تسجد ولهُ وحدهُ تعبد)
وما ورد من ذكر عبد اوامة في الكتاب ياخذ مفهوم الخادم او
السرية أخذًا يتضمن الانتماء البسيط من الفقير الباذل تعبهُ بجريتهِ
الى الغني الدافع فضتهُ بارادتهِ منتخبًا هذا ومرذلاً ذاك وذلك يقول
ان هذا الكلام هذيان كيف نترك عبيدنا الذين قد اشتريناهم
بالذهب والفضة وانفقنا عليهم كذا مصاريف من اكل وشرب وكسوة
(اسمعوا ياناس هل يطاق هذا الفشلر العمى) ويقول الاخر ليس
الهاذي سوى من ينزل الانسان منزلة البهيمة بالبيع والشراء والعلف
زاعمًا ان الزنجي او المملوك الكرجي هو حمار ناطق ولا يوجد فيهِ ادنى
احساس انساني (ماشاء الله على هذه النتائج الذهنية) وبينما كان
هذا الجوق المتجاذب يتبادل النضال واذا ايماء وزير محبة السلام
يستوقف خطاب الفيلسوف المنتصب على الصخرة كارز لبنان.وصوتهُ
يقول للزنجي الواحد هكذا اشرح ياياقوت هنا علنًا ما رويتهُ لي
خفيةً . فتردد العبد خجلاً ومهابة فاعيد عليهِ الامر فتقدم حينئذٍ هذا
العبد الاسود قليلاً وحنى راسهُ امام المظهر الملوكي ثم نكص الى الوراء
والتفت الى الحاضرين وافتتح كلامهُ بصوت منخفض يصعب استماعهُ
فناداهُ الوزير قائلاً . اجهر صوتك فجعل العبد يقص بكلام

فقد تناثرت لحومهُ من مقارعك وخففت قواهُ من احمالك . اطلق هذا العبد الغريب فقد اجمع على اطلاقهِ كل ممالك العالم وهارائحة بارود اميريكا منتشرة الى الان في آفاق المسكونة مما اثاروا من الحروب على مستعبدي البشر . اطلق هذا العبد الغريب او يطلق ذاتهُ رغمًا عنك آخذًا الاسعاف من جميع الناس ومساعدًا من نفس الحكومة المدنية بعد ان يستعطيك اجرة المثل . اطلق هذا العبد الغريب ولا نقل ان وجودهُ عندي خيرلهُ وماذا يعمل خارجًا لان الله يدبرهُ وحسبهُ امتلاك بغية الطبيعة اوخذهُ مستأجرًا وارفع عنهُ ثقل سلطانك اطلاقة اطلاقةً فلا عاد يمكنك استئسار الانسان وسوف ترى ان نفس حضرة قيل مصر سيبرز امرًا بابطال اقتناص العبيد من اعماق افريقيا وسيلاشي هذه العادة المذمومة من بلادهِ حسبما يقتضي اجتهادهُ بتقديم التمدن وتمهيد سبل خطورهِ مقتديًا بولي نعمتهِ جلالة السلطان العثماني الاعظم ذي الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان . دام ملكهُ مدى الدوران

واذ كان الفيلسوف مسترسلاً كلامهُ هذا كان الجوق القائم ورائي يعوج ويموج بين الطرب والكرب ضاجًّا باصوات السلب والايجاب فكان هذا يقول نعم ان العبودية لا تحتمل ولا يوجد اصعب على الطبع البشري منها ولا اشنع من عادة اتخاذ العبيد . وذا يقول لا لا ليس الامر كذلك لان الله قد خلق مولى وخلق عبدًا اذ جعل اناء للكرامة واناء للاهانة . والكتاب نفسهُ قد امر بطاعة العبد لمولاه

الغلاظ لاترتاح الى مناولة الاطعمة اللذيذة كعين شفاهك الرقاق. وهل تخال ان عينهُ المستديرة لاتشتاق الى التمتع بطيب الكرى كذات عينك المستطيلة وهل تفترض ان انفهُ الافطس لايحس بالمشمومات الذكية نظير انفك الاقنى. وبالاجمال نقول هل نتوهم ان وجودهُ في بيتك تحت سلطان دراهمك التي بها اشتريتهُ يجعلهُ غريباً عن جنسك ومميزاً عن نوعك وبعيداً عن حواسك. حاشا وكلاَّ. ان جميع اعضاء هذا الاسير وطبيعتهِ هي نظير اعضائك وطبيعتك ولا يوجد بينكما ادنى اختلاف بسوى جلدهِ الاسود الذي ربما يكون زاهياً ببياض الافعال. وبجلدك الابيض الذي ربما يكون مدنساً بسواد الاعمال

فمن اين أُبيح لك شراء الانسان وعذابه وقهره يا ايها الظالم العنيت. وكيف تمكنك الطبيعة الانسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بمثل هذه الافعال الشريرة الم تتحرك في باطنك جوارح الشفقة عندما يكون هذا الغريب المسكين واقفاً بين يديك القاسيتين مرتعداً مذعوراً وعيناهُ مغرورقتان بالدموع ويداهُ مبسوطتان لديك بكل ذل وهوان عسى يتقبلان منك العفو والرافة على ذنب ربما يكون حسنةً * اطلق هذا العبد الغريب فلا يسوغ لك استعباد الجنس البشري. اطلق هذا العبد الغريب فلا عاد يحتمل اثقال تهافتك ومضض خدمتك. اطلق هذا العبد الغريب فقد بحَّ حلقهُ من الصراخ وذبلت عيناهُ من كثرة الرجاء. اطلق هذا العبد الغريب

ذلك المولى الى ربط هذا المخلوق بالحبال وجلدهِ بالسياط تحت مواقع العنف الشديد بدون ادنى رفق او خشية آثام ايان دعا الداعي وربما كانت هذه الحالة حتى ان هذا المسكين يعود صارخًا ولا مجاوب مستجيرًا ولا مجير مستغيثًا ولا منقذ

فهل يوجد قلبٌ مستقيمٌ لا يلعن عادة اتخاذ العبيد بين الناس حينما يعاين انسانًا يحوي كل الاخلاق الانسانية متخذًا لهُ اسيادًا من جنسهِ ومقدمًا كل حياتهِ ضحيةً في هياكل اوامرهم المظلمة حيثما لا يجازى بسوى الضرب والشتم واللعنات فلا ياكل خبزهُ الدنيء الاَّ بالتنهد والحسرات ولا يشرب ماءَهُ العكر الا بالدموع والعبرات ولا ينام على فراشهِ الحجري الا قلقًا بالاوجاع والاوصاب وربما لا تكاد اهداب اجفانهِ ان ترتجف بمرور نسيم النعاس الا ويهب من مضجعهِ هبوب العاصفة اذ يتخيل رنين صوت في اذنهِ او هفيف وسواس ظانًا ان سيده يدعوهُ لقضاء حاجة او سيدتهُ انت تنبههُ لياتي فيغير لها رفائد الولد او يلهيهِ عنها اذا كان باكيًا لكي يمكنها استيفاء لذة النوم وهكذا فلا يعطس انف الصباح او يسيل مخاط الشيطان الا على يقظتهِ

فهات اعرب لنا يا ايها السيد عن الامتياز الطبيعي الحاصل بينك وبين عبدك البائس وقل لنا ما هو الفرق بينكما من حيث الشعور والاحساس. اخبرنا هل تظن ان جلدهُ الاسود لا يشعر بالفواعل المؤلمة عليهِ كنفس جلدك الابيض . وهل تزعم ان شفاهُ

السلوك لانهُ اذا دخل كل من الناس الى مخدع ضميرهِ انما يرى ذاتهُ نافراً كل النفار عن ارتباطهِ بعبودية غيرهِ ومتوجعاً كل التوجع لمن دفعتهُ الاقدار في فخاخ هذه العبودية الادبية الخاصة زيادة على تلك الطبيعية العامة السابق ذكرها . وليس الانسان وحدهُ ينفر طبعاً عن هذه الغلبة بل اكثر الحيوانات ايضاً على انهُ متى عارض حركة اميالها مانع ما ظهرت عليها حالاً دلائل الانزعاج واشائر المدافعة * فلا يبرح الاسد الواقع في القنص يزار ويضج حنيناً الى الغاب والعرين ولا يزال النمر الموثق بالسلاسل يصرخ ويعج رغبة في الوثوب الى اعالي الجبال ولا يفتر الكلب يهر وينبح طالما يكون مسجوناً ولا ينفك الطائر المأسور في القفص يخفق ويصيح شوقاً للطيران الى رؤوس الشجر وهلمَّ جرّاً

فاذا كان الحيوان العديم النطق لا يحتمل مضض الرق ولا يصبر على ضنك الاستعباد فكم يكون الانسان الناطق خليقاً بعدم احتمال هذه المشاق عند ما يقع في شراكها وجديراً بطلب المناص . وكم يكون خشناً بربريا من يهجم على باعة الاسرى ليتعاطى بيع او شراء اشباههِ في الطبيعة وعدلائهِ في الحد والرسم وكيف يمكن الانسان الطبيعي ان يشاهد انساناً نظيرهُ مغلولاً بقيود التعبد والاسر ولا يجمُ غضباً ويؤخذ بخواطر الشفقة والحنانة لاسيما اذ يرى ذلك العبد الوجع القلب والمنكسر الخاطر مرتعداً ازاء مولاهُ الاليم التاسي كالفريسة بين مخالب الوحش الضاري . وربما افضت قساوة

يا مستعبدي البشر واسنة الحرية لمعت في الآفاق اين صولتكم يا عاملي الظلم والوية العدل خفقت في الاعالي زولوا فقد دهمتكم الغلبة. حولوا فقد اخذتكم الرعدة * ها قد هبت بكم عواصف القضاء المبرم الى غاية الحق حينما تصدح بلابل العدل وتتراقص اغصان الامان تحت سماء التمدن العظيم . فلا عاد لسيوفكم مواقع ولا لنبالكم مرامي

* العبودية *

فاعلم يا ملك العبودية ان جميع شرائعك واحكامك التي كنت توسوس بها في صدور الناس قد سقطت الآن مبانيها ودثرت اصولها ولم يبقَ لها مدخلٌ في جميع العالم . وكل ملوك الارض قد نهضوا ضدها . ولكن لم يزل بعض الناس الى الآن متمسكًا ببقية خبيثة من نواميسك التي قد نشرتها بينهم منذ ثلاثة الاف وخمسمائة واثنين وسبعين سنةً وهي استعباد بني البشر

فمن المعلوم لدى العموم ان الطبيعة البشرية قد خُلِقَت في كمال الحرية الادبية وان خالقها ذاته عز وجل قد منحها هذه السماء الجليلة عند ما اطلق لها عنان الاختيار بين الماء والنار واضعًا فيها معرفة الخير والشر ومبدعًا في سجيتها حركة الانعكاف على هذا والانكفاف عن ذاك * فمن اين يسوغ لبني هذه الحرية الانسانية ان يبيحوا تمزيق جلبابها بانياب الاغراض لبعضهم بعضًا . وكيف قد امكن للانسان منذ القديم ان يستحسن هذه الزلة القبيحة لدى الخالق والمخلوقات وان يسلك في شانها رغمًا عن كراهية نفس غريزتِهِ لهذا

الكتمان . والسابع الصدق والحق . والثامن الامنية . وجميعهم كانوا متردين بزيٍّ واحد

فما لبث السكوت فترةً ان صرخت الملكة بصوتٍ عالٍ وقالت تعال يا ايها الفيلسوف . فوثب المذكور على قدميهِ وامتثل امام الملكة وقال مري العبد * اصعد على قمة هذه الصخرة واشرع في الخطاب علناً وليرنّ صوتك في جميع المرسح * اما انت يا قائد جيش التمدن فتمنطق بسلاح العدل واذهب فقف على راس ملك العبودية وتقوَّ ولا تجزع

الفصل السابع

المحاكمة

ففعل القائد حسب الامر واسرع الفيلسوف وصعد على قمة الصخرة ووجَّه خطابهُ الى ملك العبودية وانشأَ يقول . اصغي ايتها العبودية لكلمات في وانصتوا يا جميع قوّاد الشر . هوذا ملك التمدن قد انتصب على عرش جلالهِ فلتخفض دولة التوحش وها ملكة الحكمة قد ابدت صوتها فلتخرس افواه الجهالة . اين شوكتكم

كبير الفم فاغره . ظاهر الشدق قصير القامة . وكان على صدرهِ لوح مكتوبٌ فيهِ * هذا قائد النميمة

اما الشخص السابع فقد كان رجلاً ذا اعين صغيرة التناسب كروية الشكل مضغوطة القزحية متجاوزة حد البروز وذا وجهٍ متطاول مبطن ببشرة كثيفة مدلهمة يعلوهُ انف كالهرم المنبط . ذو جناح منفرجة . وقمة كقطعة جلود وعلى صدرهِ لوح مكتوبٌ فيهِ * هذا قائد الكذب والنفاق

اما الرجل الثامن فقد كان حامل بيرق الخيانة حسبما في لوحهِ مسطور وكل من هؤلاء الاشخاص كان مترديًا بزي خاص فهذا سابح في ثياب عريضة وذا محشور في ضيق الملبوس وذاك عارج على الركبتين فلم اشاهد شبهًا بين الواحد والاخر * ثم بعد هجعةٍ من الوقت رأيت القائد مقبلاً وثمانية اشخاص يهرعون وراءهُ ولم يزالوا حتى انتصبوا امام العرشين وخروا ساجدين لدى العظمة الملوكية حيثما فصلوا بين المحفلين وغب فترة القى الملك عينيه على القائد وقال لهُ أهؤلاء المعينون * نعم . وحنا رأسهُ مع الجميع . دع كلاًّ منهم ينتصب امام ضدهِ لاجل الشروع في المحاكمة فاوعز القائد الى المعينين بما امر الملك فذهب ووقف حيث الاشارة * واذ اثبت نظري على هذا السرب الجديد رأيت كلاًّ مكللاً بالغار واسمهُ مرسومًا على جبهتهِ باحرف نارية فكان الاول يسمى العلم . والثاني الاتضاع والثالث الرضا والقناعة . والرابع الكرم . والخامس الصفح . والسادس

لم تكن مفارقة عموم هيئتهِ الضخمة وعلى صدرهِ لوح مكتوب فيهِ * هذا قائد الحسد والطمع

اما الشخص الرابع فقد كان رجلاً كهلاً وعلى راسهِ عمامة قد مزقتها مخالب الدهور وغيرت الوانها صباغات الاقذار. وعلى بدنهِ ثوبٌ انكرت نسجهُ جميع الاقمشة لما اودعت فيه الاوساخ من الذركشة فانهُ شبعان من الدسم وريان من الوخم. ويعلو هذا الثوب وشاح قد توشح بالغثة ونهشت اقطارهُ انياب العثة فلا يحصى الا مع الاحلاس ولا يعتبر الا اعتبار الادران والادناس اما وجه هذا الرجل فقد كان بيضياً ومشهدهُ دريّاً ونظرهُ لا يفتر واقفاً على ما يلائمهُ وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه. ويداهُ قد كانتا منقبضتين بانقباض يد البخيل على ذهب ولجين. وهما موّهتان بالاوزار ومطليتان بالاقذار وعلى صدرهِ لوح مكتوب فيهِ * هذا قائد البخل

رأى الضيف مكتوباً على باب دارهِ

فحفهُ ضيفاً فقام الى السيفِ

فقلنا لهُ خيراً فظن باننا ‏ ‏ ‏ نقول لهُ خبزاً فمات من الخوفِ

اما الشخص الخامس فقد كان رجلاً ذا طلعة صفراء وحلة سوداء. واسنان مكزوزة واصداغ ٍ مهموزة. وكانت جبهتهُ تسبح في الكدر وأعينهُ تنثر الشرر وكأنهُ مشمولٌ بهمٍّ عظيم ومأخوذٌ بغمٍّ اليم وعلى صدرهِ لوح مكتوبٌ فيهِ * هذا قائد الضغينة

اما الشخص السادس فقد كان انساناً صغير الراس متطاولهُ

القدمية وعلى صدره لوح مكتوب فيهِ . هذا ملك العبودية

اما الشخص الاول بعد ذاك المقدام فكان رجلاً ضخم الجثة غليظ العنق مفرطح الراس والجبهة افطس الانف ثخين الشعر سميك الشفاه وكانت ارواح التبسم البهيمي تتراقص على وجههِ . وضباب الجمود الحيواني مخيماً على عينيهِ . وعلى صدرهِ لوحٌ مكتوب فيهِ هذا قائد الجهل

اما الشخص الثاني فلئن كان منظرهُ جميلاً الاَّ انهُ لا يخلو من جملة اطوار لا تلذ الناظر فقد كانت سعة جبينهِ مضنوكة بغضون العبوسة وبياضهُ مبلبلاً بظلمة الشكاسة . وكان انفهُ الاقنى مرتفعاً محصوراً كذي اشمئزاز وانفةٍ وحواجبهُ المقرونة مزررَّة كذي غضبٍ وسخطٍ . واعينهُ السود المبرقعة بنظر المحتقر والمستصغر وفمهُ الاقاحي مفتراً بابتسام العجب والتيه . وعلى صدرهِ لوح مكتوب فيهِ هذا قائد الكبرياء

يا قاتل الله الجمال فانهُ ما زال يصحب باخلاً متكبراً

اما الشخص الثالث فقد كان رجلاً تعجز عن تشخيص امارات وجههِ دقائق الفراسة فاعينهُ الزرق قد كانت حادّة الشخوص جداً حتى انها اذا نظرت الى شيءٍ تكاد ان تجحظ من الحجاج وتطير اليهِ وكان وجههُ الاعبس يظهر كانهُ مصاب بالاستسقاء لما فيهِ من انتفاخ الرياء . وكانت جوارح بلبال التفكر حائمة على جوانحهِ . وهيئة بكاء الطفل ما كانت تبارح شفتيهِ . هذا عدا اهبة الهجوم التي

المحتفل وانخرطت في سلك الاشخاص اللاحقين من حيث لم يشعروا بقدومي * فرأيت الجوق الذي كان موثقًا بالاداهم قد صار صفًا منتظمًا ازاء العرشين والقائد والفيلسوف لم يزالا جالسين حذاء الملكة يخاطبانها بحديث لم اسمعهُ ورزير محبة السلام واقفًا بجانب العرش الملوكي وتلوح على وجههِ سحنة التفكر العميق والملك مرسلاً نظراتهُ لفحص الجمهور وعلى وجههِ تتلاعب اطوار الغضب ومالبث السكوت برهة ان التفتت اليهِ الملكة وقالت لهُ بصوت احتفالي * قد استصوب الفيلسوف والقائد ما تناجينا بهِ منذ هنيهة في امر كيفية محاكمة هؤلاء الاسرى

فليذهب القائد اذاً وليحضر الاشخاص الذين عيناهم الى المرسح فما اتم الملك كلامهُ الاَّ ورأيت القائد قد وثب وثوب الجواد وطلب موقف الاجناد * واذ اسدل السكوت ستارهُ ونشر الهدوّ شراعهُ اخذت اتامل الصف الماسور وانتقد كلاً منهُ وانا ملتطم بين موجتي التعجب والارتياع وواقع في بحراني التكذيب والتصديق فكان الشخص الذي هو مقدام الجوق رجلاً حليف الشيخوخة قد امتصت الايام ماء وجههِ المصفوع بكفي الزجر والانتقام . وحرثت السنون سهلة جبينهِ وندف الزمان على لحيتهِ قطن الشيب . ولا يقدر على نصب قامتهِ من ثقل الحوادث المتراكمة على ظهرهِ وكان جميع حرارة اعضائهِ قد تجمعت في حدقتيهِ اللتين كانتا تنثران شررًا ودخانًا . اما راسهُ فكان متوجًا باكليل عتيق الزي قد نخرهُ صداء

بسلسلة حديد وزنجيين يجرانها من كل جهة وجملة اشخاص لم اعلم شانهم . ونظرت رجلاً يتقدم الجمع وهو يعجل بخطواتهِ ويستعجل

ثم رايت هذا المتقدم قد انفرد عن الجمهور وسار يطلب جهة العرشين واذ وصل جثا على ركبتيهِ خطفًا ثم نهض وحناها منهُ بوقارٍ ويداهُ مضجعتان على جنبيهِ . فامعنت النظر فيهِ واذا هو وزير محبة السلام واذ رآهُ الملك قال لهُ هولاء جمهور المردة . فامال الوزير راسهُ واجاب بصوت منتصر نعم * حلَّ وثاقهم واجعلهم امامي صفًّا . فنكص الوزير الى الوراء ثم التفت للزنجيين واشار اليهما بحل الوثاق ففعلا وبينما كان الصف يتركب والاشخاص اللاحقون يبعدون الى الخلف انحدر القائد والفيلسوف وجلسا حذاء عرش الملكة

الفصل السادس

قواد الشر

اما انا فرأيت المحل الذي اشغلهُ لم يعد مناسبًا لحق المعاينة والاستماع لكون انظاري لا يعود ان يمكنها الاحاطة بجميع الاشباح واذاني صارت تعجز عن ايفاء حق السمع لما استجد من الضوضاء فتركتُ هذا المحل واطلقت خطوات التجسس حتى بلغت الجمهور

فتنحنح القائد ونظر الى الفيلسوف بدعة وقال له ☆ان جميع ما شرحتهُ عن التمدن وكيفية اصولهِ وواجباتهِ اعلمهُ جيداً وطالما اتعبت ذاتي في نشرهِ بين الآفاق ورفع رايتهِ ومع ذلك اشكر فضلك على توضيحك اياهُ لي . ولكنني لاازال ارى انتشارهُ بين شعوب مملكة العبودية عسراً وشاقًّا الى الغاية ولوكانت دعائمهُ مرتكزةً على قلب الانسان الطبيعي ومن المعلوم ان الفساد اذا اخذ سعتهُ في محلٍّ ما ومكن ذاتهُ خاصةً تحت مجرى سنين كثيرة فلا يعد اصلاحهُ الا ضرباً من العبث كيف تنصلح الخمر اذا صارت خلاً كيف يحيا العضو اذا تغنغر (اي اصابتهُ الميتونة) كيف يرجع الحديد اذا صار صدأً .

ان الخمر تنصلح باقتلاع الاستحالة الخلية منها بواسطة شيءٍ من القلويات ويحيا العضو المتغنغر بارسال المنبهات والمنقيات اليهِ كاملاح النوشادر والكلس ويرجع الحديد بتصعيد العنصر الهوائي منهُ

وبينما كان الفيلسوف يجاوب القائد على قواعد فن الكيمياء .لمع جمهور يتسرب الى جهة المحفل النوراني . وهو يتشكل بكتلتهِ ويسرع نارةً ويبطئُ اخرى حسب اهواء عوارض الشجر . وكان ياتي منهُ صوت صليل حديدٍ ولم يزل متقرباً حتى نفذ في المرسح الملوكي واستقبل بوجههِ طفحات الاشعة وهناك توقف عن التقرب وعندما اجلت فيهِ طرفي وجدتهُ مركباً من تسعة اشخاص مقيدين من ارجلهم

تدعو اليها بدون زيادة ولا نقصان . اما ترى كيف ان الرئتين اللتين هما عضوا التنفس لا يتناولان من الهواء الذي بهِ تقوم الحياة الا ما يكفي لقيام هذه الحياة وما لا يؤثر عليهما ضررًا بحيث لو عرضنا باجمعها اليهِ لفتك بها وبكل الاعضاء عمومًا فلمنع هذا الفتك الشديد تحفظتا منهُ ضمن حجاب متين واخذتا تفتكان بهِ رويدًا رويدًا * فهكذا كل انسان يجب عليهِ اعتناق المحبة عامة وخاصة وتحريكها حسب الاقتضاء بدون تسليم ذاتهِ لجميع قوَّاتها حذرًا من فتكها بهِ وتمزيقها جلباب راحتهِ وبذلك تقوم هذه الدعامة الخامسة للتمدن او السلك الذي بهِ تنضم فرائد البشر بعضهم الى بعض

وبعد ان ختم الفيلسوف مقالتهُ هذه اثبت عينيهِ في الارض قليلاً كانهُ يقصد اراحة فمهِ من كثرة التكلم وجعل يخط في الثرى . ثم نظر الى الذي كانت سحنتهُ مرآة ترتسم عليها علامات صغيهِ وارتياح نفسهِ . وقال لهُ . هاك دعائم التمدن . فاذا كان الانسان قد خلق كاملاً في الانسانية متخلقًا بصفات خالقهِ ومشبهًا بكمالاتهِ لا يكون عندنا شك اذ ذاك في كون هذه الدعائم مرتكزة في قلبهِ حاملةً اسم الناموس الطبيعي حسب تعليم الايتيكا (الفلسفة الادبيّة) ولا يعود لنا ريبٌ بكون تقلبات الظروف وكرور الازمان قد قلقلت تلك الدعامات وافسدت ذلك الناموس . وبناءً عليهِ لا يكون عسرًا تثبيت قلقلة الثابت واصلاح فساد الصالح . ولا يحتاج هذا الامر الى مضي اجيال وقرون

فليس يليق الصبر الاَّ بمغرمٍ الى غير ما يهواهُ ليس بميالِ
اقلتَ الهوى عند السوى فلك الهنا
ولو مضنى فالقصد بسطك ياقالي
فقلت يمين الله لم اذكر السوى وحسبكِ تبربرًا شواهد افعالي
انا است ممن ينشئُ الهجر والقلى ولكنما انتِ المقيلة ايصالي
غزوتِ جميع العقل مني والقوى
فلم يبقَ لي نطقٌ لاشرح احوالي
فقد سكنت دون الهوى السن النهى
كما حُطَّ عن ادراكهِ الركنُ العالي
اراك فيعروني جمودٌ وبهتةٌ
ولا عجبٌ فالسحرُ في وجهكِ العالي
على عدد الانفاس ذكركِ في فمي
وشخصكِ في قلبي وعهدك في بالي
ابات اليالي والشؤون سواكبٌ
على ما اقاسي من شجونٍ واهوالِ
على فرط انواتي على عظم لوعتي
على طول اشواقي على سوء اقبالي
كذا يحكم العشق الظلوم باهلهِ
ويفتنهم فليحذر الرجل الخالي
فينبغي استعمال المحبة اذًا على قدر الواجب وحسب الظروف التي

وهاك هذه الابيات الاخر تبياناً لما ينجم عن الهوى وما يعانيهِ اخوالجوى

الى مَ ذوات الخدر يجذبنَ آمالي وحتى مَ اهوى من تدافع آمالي
عيون المهى باللهِ كفّي فلم تذر لكن بقلبي موقعاً ربة الخالِ
ويا ظبياتِ الانس نفراً عن الذي يحب التي من حبهِ قلبها خالي
صريع بادبار التي هدرت دمي فلا حظّ لي منكنّ قط باقبالِ
مهفهفة تدنو الغصون لقدها ويعنو لسامي وجهها القمر العالي
ولما تلاقينا معاً بعد هجعةٍ
من البين اورث في الحشى كل تشعالِ
لبثنا وكل مطرق دهشة اللقا
وصوت خفوق القلب مستنطق البالِ
ومابيننا الاشواق تلعب في الخفا
وتعرب عن حال الهوى أَلسن الحالِ
يودُّ التقاء العين بالعين شوقنا ويمنعهُ دمعٌ لاعيننا مالي
فواعجباً من عاشقٍ رغب اللقا ومذ نالهُ لم يغتنم غير بلبالِ
ولكنني لما تنهدت حسرةً وحاولت اطلاقي لتيار اقوالي
تحرك في احشائها ساكن الولا فالتت عليَّ نظرةً تنعش البالي
وقالت بصوتٍ ارجفتهُ يد الهوى ولفظٍ كدرٍ زان َ مبسمها الحالي
لك الله من صبٍّ حوى الصبر كلهُ
فليتك لي ابقيت وزنة مثقال

ماذا على عيني فؤاديَ قد جنى حتى نعاقبهُ عقاباً يعظمُ
طبعت عليهِ خيالَ غالبة النهى فاحاطهُ لهبٌ ودمعٌ يسجمُ
فانا بروح الحب مسكونٌ فلِم للنارِ او للماء رحتُ اسلمُ
من لي بها غيداء فوق جبينها نور المحاسن والتعقل يرسمُ
وبسيف صاعقة الهوى الحاظها قامت تحاربني فانيَّ اسلمُ
انا لست انعم في الحياة ولا ارى حظًّا سوى معها ففيها انعمُ
وكذاك لا اهنأُ بكل تكلمٍ ان لم اكن معها بها اتكلمُ
فاذا نأَت عني اعود على لظىً واروح في خرسٍ وعقليَ يعقمُ
اترقب الطرقاتِ عليّ التقي معها وان لمع التلاقي ابكمُ
ترنوا اليَّ كذاك ارنو نحوها والوجد في نظراتنا متبسمُ
ونصافح الايدي والسنة الهوى تروي احاديث اللقا وتترجمُ
تمضي فارقب خطوها ونواظري تجثو لدى اقدامها اذ تقدمُ
واعود في كبدٍ تذوب ومقلةٍ عبرى وما عندي لسانٌ او فمُ
اقضي الدجى وانا احنُّ الى غدٍ وكذا يجيُّ غدٌ وعمري يصرمُ
يا ايها الغدُ كم غليت دمي على نار الرجا والى متى اتيمُ
ولكم احاطت بي تباريح الجوى وغدا يساعدها القضاء المبرمُ

فهرعت نحو الروض معدوم القوى
ابكي وافواهُ الازاهر تبسمُ

اترقب البلوى وقلبي راقب عدداً من الامالِ لا يترقمُ
قلبٌ به استهوى الهوى عنفاً الى وادي العنا فغدا يهيم ويلطمُ

والشرق يلقي الشهب في جوف الدجى والغرب يبتلعُ الجميعَ ويهضمُ

وانا احيرُ كانني ضب وفي دوح الحشى طير الهوى يترنمُ
في كل جارحةٍ تدبُّ صبابةٌ وبكلِّ عضوٍ للغرام بدا فمُ
يا ايها الحب الذي تخفى لدى اصواتهُ كل الحواس وتبلمُ
كم راحَ يخبط فيك يا وادي البكا قلبٌ وكم سحقت بسيلك اعظمُ
ما انت الاَّ دولةٌ غزت الورى وبظلمها كل امرءٍ يتظلمُ
أيَّ السعادة في الغرام لربهِ وسحابة البلوى عليهِ تغيمُ
فحياتهُ مسلوبةٌ ودموعهُ مسكوبةٌ وفؤادهُ متكلمُ
أبرق ربَّ الحب نقطة لذةٍ وعليهِ بحر المؤلمات عرمرمُ
اني ارى وقت النعيم كخلبٍ يمضي واوقات الشقاق تخيمُ
ياويح من للحب عرَّض نفسهُ جهلاً فسوف يذوب فيهِ ويعدمُ
سلني أيا باغي الهوى اخبرك عن احوالهِ فانا بهِ متقدمُ
اني علقتُ بذات حسنٍ ما بدت الا وعنها البدر راحَ يترجمُ
خودٌ اذا نضت اللثامَ بدا لنا قمرٌ بليلِ ذوائبٍ متلثمُ
قد كلمت احشاي بالمقل التي فيها الجمال مسلمٌ ومكلمُ
مُقَلٌ لعيني نرجسٌ او اكؤسٌ لكن لقلبي اسيفٌ او اسهمُ
من وجهها نور الحياة لأعيني يجلى ونار فنًا لقلبي تضرمُ
لم القَ نفسي مفردًا او مصحبًا الاَّ وشوقي نحوها مستلزمُ
شوقٌ يمثلها لطرفي كلما غابت فينعم حيثما لا ينعمُ
فهيَ النسيم تطيب كيف سرت ولا عينٌ ترى خطراتها اذ تقدمُ

ويخال الكائنات جميعها تصوّر لديهِ ملعب الهوى وتتنفس باماراتهِ وخواطره . فيظن الشمس ممثلةً لديهِ اشعة جمال الحبيب . ويحسب القمر رسم وجههِ مطبوعًا في مرآة الفلك ويخال الاهلة قلامات من ظفرهِ . ويزعم الكواكب اعينًا ترشق نظرات الرقيب ويفترض الجبال منطوية على معنى اثقال الجوى او يظنها اوتاد التمكين خيمة السماء على عالم الهوى ويرى السحاب سارقًا دموعهُ والضباب ممثلاً ولوعهُ . لا بل يرى طوفان نوح كعبرتهِ ونار الخليل كزفرتهِ ويتخذ الريح رسولاً لتبليغ الاشواق ويرى الماء مقلدًا لانين العشاق ويعاين الاغصان مترنحةً باعطاف المحبوب والاطيار شاكيةً لوعة فراقهِ والازهار نافحةً بعطر نفثاتهِ والغزلان تُغزل بنظراتهِ وتفك طلاسم لفتاتهِ ونفراتهِ . وهاك هذا القصيد شرحًا للعشق العنيد

ماذا ترى في العشق ماذا تزعمُ يا ايها الصب الكئيب المغرمُ
هل فيهِ غير المؤلماتِ فدونهُ مُقَلٌ تسيل واكبدٌ تتضرمُ
اني نفقتُ العمرَ في سوق الهوى بخسًا ولم اربح سوى ما يؤلمُ
كم ليلةٍ قضيتها وظبا الجوى تدمي الحشى فيسيلُ من عيني الدمُ
وكأَنَّ صوت خفوق قلبي مزعجٌ صمتَ الظلام فيدلهمُّ ويدهمُ
اصبوا لي برق الربوع اذا بدا واضجُّ ما لمعت لديَّ الانجمُ
ابكي لدى خطرات كل تذكرٍ والافقُ يعبُس والكواكب تبسمُ
والليلُ بحرٌ هاج في عمق السما فغدا بهِ زبد المجرة يتجمُ

الحرب حينما تكون هذه المشروعات واجبة لاصلاح حالةٍ ما ادبية. وكالمعاملة بالشفقة اذ تكون الصرامة واجبة وكايقاع الاعضاء والصفح موقع الانتقام الذي ربما يوجد لازماً للتعليم وكالاسفار عن الرضا بينما تكون لوائح الغضب مطلوبةً للتهديد . هذا عدا ما ينتج عن افراط المحبة الخصوصية في قلب شخص خصوصي لمحبوبٍ ما فانهُ وان كان اصلاً تتفرع عنهُ جملة غصون صالحة لتمدن صاحبهِ كتلطيف الروح وتهذيب الطبع وترفيع العقل والذوق وحسن المعاشرة الا انهُ اذا بلغ اشدهُ يترك وراءهُ جملة آفات تنكد عيش المعترى بهِ وتسلبهُ كل راحتهِ كقهر الحرّية الذاتية مثلاً والاضطرار الى البطالة واهانة الدراهم التي يدعوها البعض اله العيشة وتسليم النفس الى تاثير ثوائر الانفعالات الشاقة وتعاقبها . كالحزن فالفرح والخوف فالجراءة . والتعب فالراحة . وهذا ما خلا التأثيرات الكثيرة التي تفترسهُ على ممر الاوقات . فلا يبرح قلبهُ في حضرة المعشوق هدفاً لنبال العيون وموقد الجمرات الخدود وموقعاً لرمح القوام وقدراً لغليان ماء المحيا . ولا تزال روحهُ في الغيبة اتوناً لارتفاع لهيب الاشواق والاتواق ومحلاً لتناثر شرر الافكار والتصورات وميداناً لمسابقة خيول الاميال والعواطف فيحيي الليل سهراً وارقاً ويقضي النهار تعباً وقلقاً اذ يرى ذاتهُ ضارباً في اودية الوحدة والانفراد حينما يشاهد قلبهُ طائراً على اجنحة شياطين الوساوس والاوهام خائضاً في بحور الآمال والمطامع وهكذا يرى العالم باسرهِ كانهُ مرسح للغرام

وصارخًا بلسان الروح هكذا

ههنا يجلس التمدن على عرش الكمال فتنخذق امامهُ بيارق الخشونة ويمزق التوحش ثوبهُ. هنا تخب بلابل السكون على منابر شجر السلامة فيصمت صياح القلق ويخفي الاضراب صوتهُ . هنا ترن صنوح الافراح وتضرب طبول البشائر فتخرس صراخات الاكدار ويتلاشى ذويّ المصائب · هنا يشرق صباغ الاعضاء ويتلامع شعاع التغاضي فيغور ديجور الضغينة وتجاب الظلمة عن الحق هنا يتبدد دخان الانتقام ويتقشع ضباب الغضب فيتضح اثير الصفح ويتلألأ ضوء الرضا هنا تنفطر صخور القساوة وتمور جبال الجفاء فيجري سلسبيل الشفقة وتتمهد سهول الوفاء هنا يفتر ثغر الابتسام ويضحك محيا الندى فيجم جبين الاكتئاب ويبكي وجهُ القتار. هنا يفرع غرس التمني. هنا يثمر غصن الرجاء. هنا تدور الهيئة على مركز التمام والكمال . هنا ينثل عرش العبودية وترفع الحرّية بيارقها

فاذا كان يوجد للمحبة اثمار طيبة المخبر وشهية المنظر كهذه الثمرات كيف لا تحسب اذا دعامةً راسخةً للتمدن . نعم ان التمدن لا يستغني عن هذه الدعامة اصلاً ولا يمكن ثباتهُ بدونها كما لا يمكن وقوف قناطر الهيئة الاعليها وبعد ذلك فلا بدّ من وجوب حد للمحبة لا تتجاوزهُ لئلا تجانس ضدها في النتائج القبيحة على انهُ ولو كانت المحبة تحسب روح الانتظام البشري وحياتهِ لكن يوجد للافراط فيها كثير من النتائج المضرة وذلك كمعارضة السلامة مثلاً لمشروعات

منزلة القوة الدافعة بين الاجسام فيبعدهم عن بعضهم ويشتت شمل هيئتهم ويسلبهم راحة الحياة المحبوبة لهم بالظفرة الاصلية

فلا يخطي من يسمي المحبة الهة الهيئة الاجتماعية بناءً على ما يصدر عنها من المفاعيل الغريبة والتاثيرات العجيبة بين البشر. فلو اقيم لها وثنٌ في هيكل الذهن لكان على شكل غادةٍ كلها جميلة وليس فيها معاب اذ تجمع من الصفات ما يتقرر في هذه الابيات

على وجهها نور الصلاح يلوحُ ... ومن ثغرها عطر الفلاح يروحُ
وبرق الهدى من لحظها متالقٌ ... ومبسمها بالطيبات يفوحُ
وفي خدها وردُ المسرة يجتلي ... لنا وبهِ قطر الهناء صريحُ
وقدٌ لها يهتزُّ عن طربٍ كذا ... على غصنهِ طير السلام صدوحُ
رعى الله قلبًا فيهِ قد صاح صوتها ... وقاتل قلبًا فيهِ ليس نصيحُ
هي الاصل في الاكوان فهي مثابةٌ ... لكل قلوب العالمين تريحُ
بها تحسن الدنيا بها تفضل الورى ... بها كل شيءٍ صالحٌ ومليحُ
لدى وجهها تجثو القبائل كلها ... وكل سجودٍ لا يعاب صحيحُ
بها كافة الاجيال غنت وقد اتى ... لها من جميع المنذرين مديحُ
هي الكوكب السيار في فلك الدُنا ... بهِ السعد يغدو والنحوس تروحُ

فلا يسمح التمدن بالدخول تحت لوائهِ لاحدٍ ما لم ينصب في هيكل قلبهِ تمثال المحبة مقدمًا بخور الافكار الطيبة والعواطف الجيدة

عمن سيبسط عثنونهُ ويقول كيف يسوغ لمن لم يسلم على عتبة مدرسةٍ ان يتكلم عن اللاهوتيات بشيءٍ لم يسعهُ ادراكهُ وعلى اي قاعدةٍ اثبت حكم القوّة الفاعلة للقوّة المنفعلة وضعضع الروحيات بالماديات. ثم يشهر المدرسية سيوف الشتائم مجردةً من اغماد شهادات مزورة ولكن لياخذ حذرهُ من انتقام الشبل عن الاسد

اما لسان الصواب فيقول لذوي الدقة في التامل هكذا ان المراد من دعوى المحبة العامة ليس ان تكون هي نفس الذات الالهية منبثة في جزئيات الخليقة بل انها هي القوّة التي جعلها الله لتحريك الخلائق وتدبير الكائنات تحت اشكال مختلفة تدعى الناموس العام واذ ذاك فيكون المراد هو الاشارة الى ان الانسان اذا كان يحب نفسهُ فهو ملزوم تبعاً لهذه المحبة ان يحب شبيههُ بالانسانية تسد بدًا الحق كالهِ الطبيعي وذلك اقتداءً بخالقهِ الذي عندما رأى ذاتهُ ملءَ الكمال احب ذاتهُ وبمحبتهِ هذه خلق العالم محبوباً منهُ وجعل يدبر هيئة نظامهِ بما لم تدركهُ افكار الطبيعيين فاعطوا لكل حركة اسماً مبهماً * فينتج اذاً انهُ بالمحبة قد قام العالم جميعهُ . وبالمحبة تتحرك جميع الاشياء . وبالمحبة يثبت كل من المخلوقات على حدتهِ وبالمحبة يحافظ الكل على اجزائهِ وهكذا فبدون المحبة بين البشر المطبوعين على فطرة الله لايمكن قيام نظامهم الاجتماعي على الوجه المطلوب اذ ان المحبة هي القوّة الوحيدة للتاليف بين افرادهم المتفرقة على وجهِ الارض والضابط الاول لنظام عالم تمدنهم بخلاف البعض الذي ينزل

الحياة مسالك الميل الى ان تحافظ على انواعها فلماذا دُعيتُ تناسلاً. انا التي قد جمعت اشتات البشر الى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين في حروب الحوادث فلماذا سُميتُ اغتصاباً. انا التي قد قفلت مصارع البحر واتخمت كبرياء لججهِ فلماذا ادعى جزراً ومداً. انا التي حيثما نزلت عمرت وحيثما رحلت خربت فلماذا لا يكترث بامري. انا التي لا تغتني الطبيعة عني ولو طاردتني فلتات الاقدار فلماذا ينكرني البعض. انا التي قد اتخذني التمدن دعامةً قوية لهُ وبدوني لا يثبت لهُ بناء فهل يهدمني الأ كل متوحش

ها قد عظمت دعوى المحبة وتفاقمت الى الغاية لانها قد جعلت لنفسها ربط العالم باسرهِ وجعلت جميع الاسماء المستعملة في التعبير عن القوّة المولفة مترادفة على معناها حتى كانها تود ان تشرح بذاتها معنى تلك المحبة الجوهرية التي قد انشاها الباري بذاتهِ ازلياً واصدرها كلمةً لتدبير الاكوان التي بها كانت وبغيرها لم يكن شيء مما كوّن مهلاً مهلاً. فلا عاد يقدر هذا الكلام على اتمام سيرهِ فقد حاولت الاستطراق اليهِ اشواط المنتقدين وها غبار اغراضهم بدا يتصاعد عن بعد وكل منهم فاغر اتون فاه ليقذف دخان التفنيد فالبعض يعبسون وجوههم ويقولون هوذا يستنتج من هنا الوهية حركة الموجودات وآخرون يرفعون انوفهم ويقولون . ها. ها. انما يستفاد من هذا الكلام كون الكلمة ممتزجة مادياً في عموم الموجودات وغيرهم يحلقون باعينهم ويصيحون هذا تعليم الماد بين نفسهُ وهذا فضلاً

طولة الزمان تقلقلاً ووهناً فيعود خطر هبوطهِ قريباً وخصوصاً في ايام الشتاء عندما يصبح عرضة لصدم الرياح واندفاق الامطار فان سقوطهُ اذ ذاك يكون عظيماً

ولما كان تعرض الناس الى اقتبال هذا الخطر كثيراً وجب على جميعهم تواصل التدقيق علي حالة الابنية من الداخل والخارج لكي يمنعوا بذلك اخطاراً عظيمة تتهددهم على ممر الدقائق ويدخلوا الى منازلهم بسلامٍ آمنين

الدعامة الخامسة المحبة

هوذا رنين صوت الكون العالي يدوي في اعماق العالم العقلي ليستفز سكون الارواح الفكرية الى التطاير باجنحة التخيلات السرية على دوح الوجود العام حيثما يمكنها اختطاف تصورات تدعو القوة الحاكمة الى ان تحكم بان الناموس الذي جعلتهُ حكمة العناية ضابطاً لمجموع نظام الخليقة هو المحبة نفسها التي يختلف اسمها باختلاف موقعها * فها هي هذه المحبة قد صعدت على منبر ذلك النظام العظيم وشرعت تنادي بصوت الغوامض هكذا * اسمعي ايتها السماء فانكلم وانصتي ايتها الارض. انا التي قد جمعت شمل الذرات الاوّلية فكانت اجراماً تتلامع في قبة السماء فلماذا دُعيتُ التصاقاً. انا التي قد اوثقت هذه الاجرام برباط الانضمام فكانت افلاكاً تدور حول بعضها فلماذا سُميتُ تجاذباً. انا التي قد الفت بين العناصر المختلفة فكانت مملكات تزهو بمجد الارتباط فلماذا لقبتُ تماسكاً. انا التي قد فتحت في اجناس

في التمدن اذاً افرغ الهمة في تحسين هذه الكيفية واتقانها على انهُ لايسمح لهم التمدن قط بترك الشوارع والازقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط بل يطلب منهم دائماً ان تكون مستقيمةً عريضةً مهدة البلاط والخط وذلك لان الشارع او الزقاق اذا كان ضنكا يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق امتداد النور الى مخادع الناس او حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والاورام الباردة والحدار واكمداد البشرة ونحو ذلك واذا كان معوجاً فانهُ يعسر انطلاق خطوات الناس فتتعثر ارجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذٍ يكون السير في الزقاق عراكاً لاانتقالاً. واذا كان وعراً مستوفانهُ يصدع اقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت احمالها الثقيلة فتتهشم حوافرها وتتكسر ارساغها وذلك ينافي ما تطلبهُ الشفقة على البهائم التي لانطق لها لتشكو مصابها وتندب عذابها هذا ما خلا المؤيدات التي يجدها الشتاء هناك لان يصنع بحيرات من الاوحال والاطيان بحيث يعود الناس ملتزمين لقوارب يخوضون بها ولايبقى سبيل لسلوك العميان

ثالثاً ترميم الابنية * ومما يتخذ دليلاً على تمدن المدينة او خشونتها هو ملاحظة امر ابنيتها ولذلك يقتضي لقاصدي التمدن وفور الاهتمام في اصلاح شان الابنية والمشيدات. وهذا يتوقف على فحصها كل مدة لاستعلام حالة متانتها وثباتها فراراً من حدوث الاخطار لانهُ متى ترك البناء جسراً العبور السنين بدون ملاحظة امرهِ احدثت فيهِ

وبالاجمال نقول ان الغاية الوحيدة للطبيعة هي قبول ما يناسبها لقيام حياتها ودفع ما يستنزل عليها صاعقة الموت بمغايرتهِ لها ولو كان صادرًا عن ذات فعلها الاترى كيف انها تجتهد في طرد التراكيب الصديدية التابعة لالتهابٍ ما عضوي الى الخارج بواسطة النفث او الغائط او الاستطراق من المركز الانفعالي الى بعض جهات المحيط البدني حتى اذا لم يمكنها تتميم هذه العملية ودخل الصديد الفاسد الى التيار الدموي القى عليها رعدة الاضطراب بافساد جميع كتلة الدم واماتها بعد نزاعٍ شديد

فاذا كانت الطبيعة لاتقبل ما يغرب عنها ولو كان آخذاً صدوره من ذات اجزائها لعدم نفعهِ لها فكيف تقبل ما يكون غريبًا واجنبيًا معًا * ومن حيث ان الاقذار والاوساخ لها اشد الافعال السمية كما سبق . فلا يسوغ والحالة هذه تغافل ارباب التمدن عن ملاشاتها ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للاسواق والشوارع والخاصة للبيوت والمساكن فرارًا من تلك التاثيرات الرديئة ومراعاةً لحق المدينة . ولاشك اذا نظرنا الى العمل البديهي الذي تصنعهُ الحيوانات بتنظيف ذواتها ناخذهُ دليلاً على ضرر القذارة ووجوب النظافة ومثالاً يقتدي بهِ كل متغافل اذ ان الحيوان لايفعل الاَّ ما ترشدهُ الطبيعة اليهِ طلبًا لما يصلح شانها ودفعًا لما يفجع بها

ثانيًا تمهيد الشوارع والازقة * انهُ مما يستدل ايضًا على الحالة التمدنية لقومٍ ما هو ملاحظة كيفية الشوارع والازقة فمن اهم الواجبات للداخلين

الدعامة الرابعة صحة المدينة

ان اول شيء يُستدل بهِ على تمدن امَّةٍ ما اوتوحشها هو النظر الى حالة مدينتها . فكلما كانت المدينة صحيحةً كان التمدن صحيحًا وكلما كانت سقيمة كان سقيمًا* اما كيفيةً هذه الصحة المدنية فهي تقوم تحت جملة احوال واخصها ثلاثٌ

اولاً النظافة* انهُ لامناص للمتمدنين من بذل مزيد الاجتهاد والاعتناء بتنظيف اسواقهم ومنازلهم تسديدًا لطلب الطبيعة نفسها . لان المراد من ذلك ليس نوال الغاية الادبية وحدها بل مع الغاية الطبيعية ايضًا وهي اراحة الطبيعة الحيوية مما يقلق نظامها ويزعج وظائفها . ولا يوجد خطب اشدّ تاثيرًا على هذه الطبيعة من دخول المواد الغريبة عنها اليها لاسيما اذا كانت مفسودة فكما ان بعض الجواهر المعدنية لغرابة تركيبهِ يزعزع اركان البناء العضوي للجهاز الحيواني ويسلب مجموع حياتهِ متى دخل اليهِ هكذا تفعل الانبعاثات الفاسدة بالاوخام والاقذار عندما يحملها الهواء ويدفعها الى عضو التنفس حيثما يتناولها الدم ويمر بها الى مواقع التغذية

فكم تقاسي الطبيعة من الاضطرابات المرضية المميتة وكم تلتمس الانقاذ بلسان حال الانزعاج الوظائفي عندما تمازجها هذه المواد الغريبة فهي السبب الاعظم لتهييج الحميات الخبيثة كانواع التيفوس والتيفوئد كما انها سبب قوي لتمهيد طريق الوافدات الوبائية المهلكة كانواع الطاعون والهواء الهندي

واشاعتها . فهم تارةً ينسبون الى بعض الحيوانات خاصياتٍ لو امكن وجودها لكان الانسان خليقًا بها وكذلك كنباح الكلب دلالةً على حدوث مصيبةٍ ونعق البوم اشارةً الى وقوع خرابٍ. وهرب الطيور علامةً على قدوم وباءٍ . وتارةً يتهمون الافلاك بما تفعلهُ الظروف والاقدار اذ ينسبون اليها كل الحوادث التي تتم على الارض عمومًا وخصوصًا. فيعطون الحرب للمريخ والسعد للمشتري والنحس لزحل والذكاء لعطارد وخفة الروح للزهرة والصناعة للقمر وطبخ المعادن للشمس . هذا عدا امورٍ لا تعد ولا تحصى ينسبونها الى كل من هذه الاجرام التي تقسم بذواتها انها لا تعرفهم. ولم تطرح عليهم قط لا حربًا ولا سلامةً ولا سعدًا ولا نحسًا ولا غير ذلك فضلاً عما ينسبونهُ الى العين من التاثيرات والى الاحلام من التفسيرات

فلا يمكن لاحدٍ ان يحسن عوائدهُ واخلاقهُ التمدنية الا اذا رفع من فكرهِ الاعتقاد بمثل هذه الاكاذيب عالمًا انها واصلةٌ اليهِ من خرافات اليونانيين الذين كانت عباداتهم ورسومهم تسمح لهم ان يعتقدوا بمثل هذه الاضاليل

وبالاجمال نقول انهُ يوجد شوارد شتى مما يقتضيهِ مقام هذا الكلام العام قد عدلنا عن جمعها حبًّا في الاختصار الَّا انَّا نختم سياقنا هذا قائلين * انهُ لا يمكن للتمدن ان يقبل في نظامهِ ادنى عادة قبيحة او خلقٍ رديٍّ ولا يقدر احد على الدخول تحت الويتهِ ما لم يحسن عاداتهِ واخلاقهِ

حدث في النفس لا يكف عن استنهاض ضدّهِ ايقاعًا لرد الفعل وكلما كان وقوع الفعل شديدًا اوسريعًا كان ردهُ شديدًا او سريعًا

وهيهات ان يحسبوا متمدنين كل اولئك الذين يشرعون اذلال النساء وتحقيرهنَّ واهانتهنَّ وربما ضربّهنَّ ايضًا بناءً على ان هذا الجنس ساقط ولا يستحق ادنى اعتبار مع ان الامر على خلاف مايظنونهُ فان الجنس النسائي جوهر لطيف للغاية واهل لكل كرامة ويستحق كل الالتفات اليهِ والطبيعة نفسها تدعو الى اكرامهِ ومداراتهِ اذ انهُ الجزء الاهم في الانسانية والمساعد العظيم لقيام الجنس البشري والينبوع الاول لتغذية الحياة ومواساتها في زمن قصورها

ولا يحسب متمدنًا ذلك الرجل الذي يزعم ان الافراط في معاشرة النساء ومخالطتهنَّ من واجبات التمدن غير عالم ان كثرة التهافت على الامرأة تجعل الرجل ذليلاً لديها وكلما عز نفسًا ارتفع عندها مقامًا

ولا تخلو سيماء التمدن على اولئك الذين عندما يتكلمون او يتخاصمون يفغرون افواههم ويرفعون اصواتهم الى درجة تمزيق اوتار حناجرهم حتى يكادوا يشاركون الجمل بجعجعتهِ والثور بجعجتهِ والحمار بنهيقهِ. مع ان غاية التمدن هي نزع كل سمة بهيمية عن الانسان ولا تحسن ثياب التمدن على كل اولئك الذين ينزلون الخرافات منزلة الحقائق وينذرون بها على الآفاق غير عالمين انهُ لا شيء يدنس تلك الثياب النقية ويلطخها نظير اعتناق الاكاذيب والاباطيل

الذريعة الى قبة السماء بحيث تقشعر الابدان انفعالاً منها ويستولي الكمود والانزعاج على كل سامعيها . ولكن قد يضمون الى عقد التمدن بشرط ان يبطلوا هذه العادة القبيحة ويعلموا انها موروثة من ازمنة عرب الجاهلية الذين كانوا يكلفون الطبيعة الانسانية في هذا الامر ما تستعمله بعض الحيوانات ويتحققوا ان انسانيتهم تكون ساقطة سقوطًا حقيقيًّا حتى انها لم ترث من اولئك القبائل سوى تلك العادة المستقبحة وتركت كل ملائحهم الجليلة مثل الكرم والنخوة والحماسة وحماية الجار وقبول الضيف وهلمّ جرًّا

وهكذا لا يُدعَون متمدنين كل الذين يجعلون الحزن شريعةً ظالمةً الى حد انها لا تسمح قط لمن يدخل تحت لوائها ان يستعمل ادنى شيءٍ من لوازم الطبيعة الا بعد بضع سنين فلا يمكنهُ ان يخفف عنهُ حرارة الصيف بلبس الثياب البيض ولو افضى ذلك الى الاضرار بصحتهِ ولا يقدر على تنقية جسمهِ من الاوساخ وتنشيط وظيفة التبخير في ذهابهِ الى الحمام ولو افترس القمل جلدهُ واهلكهُ الاستسقاء ولا يستطيع الخروج الى البستان لاجل استنشاق الهواء النظيف ولو تسرطن جميع دمهِ . ولا يؤذن لهُ بسماع آلات الطرب او اصوات الغناء ولو اوقعتهُ الاكدار في داء المراق . ولا يسوغ لهُ ان يصنع في بيتهِ شيئًا من المأكولات الطيبة عند احساسهِ بقبولها حذرًا من قول الناس عنهُ انهُ قليل الحس . ولكنهم قد يحسبون من ارباب التمدن متى علموا ان الحزن شريعة تطلب عكس ما ينسبون اليها وانهُ انفعالٌ كلما

اميالهم المنحرفة

ولا اعتبار لاولئك الذين ينفقون المبالغ الوافرة على تجهيز المآدب الفاخرة والولائم الحافلة في ايام المواسم والاعياد . ولا يدفعون فلسًا واحدًا لعمل الخير لكنهم يعتبرون اذا جعلوا ذلك الانفاق مخصوصًا للاعمال الخيرية وعلموا ان عظمات المآدب والولائم انما كانت معتبرةً في هياكل الوثنيين عند تقديم الضحايا لآلهتهم يوم الموسم او العيد

ولا يُعدّ مع المتمدنين اولئك الذين يتسابقون مسرعين الى منازل بعضهم في الايام الموسومة عندهم بالرسميَّة خابطين تحت شمس الصيف وغبارهِ وخائضين في امطارِ الشتاء واوحالهِ . ولا يوجه احدٌ منهم خطوةً واحدةً الى فعل الجميل . واذا وجد منهم من يقصد ذلك الفعل سد الآخرون طريقهُ بحجارة الملامة كما يرجمونهُ بها لو تأخر في مسابقتهم الى قضاء تلك الرسوم الباطلة

ولا يقبل التمدن من تثور في اعراسهم صياحات زغاريت النساء وصراخات جوقات الرجال خصوصًا حينما يكون صدوح آلات الطرب داعيًا الى الهدوّ والسكوت فهم يجمعون بين المتضادات اذ يتركون الآذان مصدوحةً ومرتاحةً معًا فلا يشتمون رائحة التمدن ما داموا معتنقين هذه العادة الخشنة

ولا ينخرط في سلك المتمدنين كل اولئك الذين متى دخلت المنية بيت احدهم نهضت ضوضاء الولاول وطارت صراخاتها

فجميع هذه العادات والاخلاق الشخصيَّة واشباهها مما لم يذكر لايمكن اتفاقها مع قوانين التمدن ولذلك يجب استئصالها من الناس وتربيتهم على اضدادها ولو دعا الامر الى صعوبةٍ قصوى . وبهذا يقوم التحسين المطلوب هنا في الكلام الخاص

ثانياً العام * ان كرور ازمنة الجهالة على بعض البشر وتقلبات الظروف فيما بينهم قد احدثت فيهم كثيراً من العوائد والاخلاق التي تنكر عليهم اذا دخلوا في نظام التمدن. ولذلك يجب ان يجتهدوا كثيراً في ازالتها ويستبدلوها بما يناسب روح العصر

فلا يعتبر اولئك المدعون بالتمدن اذا كانت بيوتهم مشحونة بالاثاث العقيم كالفضة والنحاس وانواع الخزف والاقمشة ولم يوجد فيها كتاب او مياومة ولا ادنى آلة للعلم . لكنما اعتبارهم يقوم اذا كانوا يعلمون ان زينة العقل تفوق زينة المسكن وان هذه نتيجة الاجيال المظلمة التي كانت تنطبق على المفخخات والعظمات الفارغة وتلك نتيجة الجيل المتنوّر الذي لا يقبل ما لا نفع فيهِ

ولا نُعتدُّ بهؤلاء المتظاهرين بالتمدن اذا كانت رؤُوس نسائهم تتشعشع بانوار الاحجار الكريمة ذات الثمن الوافر والعديمة الثمرة ولم يكن في تلك الرؤُوس ادنى شعاع للعقل والآداب بل يعتدُّ بهم اذا رفعوا جميع تلك الظواهر الخياليَّة واثبتوها للنفقة على تعليم نسائهم وتهذيبهنَّ . كما انهم لا يعتبرون اصلاً مهما ضيقوا اثوابهم واطالوا خيزراناتهم وهرولوا مسرعين اذا لم يوسعوا افكارهم ويتيدوا جماح

وهذا يستدعي الخيانة والنكث * ذاك يدعو الى النصيحة والتحريض وهذا يستميل الى الخديعة والغش * ذاك يجعل الانسان مكرماً محبوباً وهذا يصيره مُهاناً مبغوضاً * ذاك ينهج بصاحبهِ طرق السعادة والغنى وهذا يطرحهُ في وهاد النحس والفقر

ولا يتفق التمدن مع عادة النميمة لان ذاك ينادي بقبح الكشف عن الاعمال السريَّة للبشر وهذه تصرخ باعلانها لدى الآفاق * ذاك يسدل ستارة الخفاء على كل النقائص والعيوب وهذه مهمتة بخرق كل ستارة * ذاك يفتح صدر الانسان لدخول الاسرار فيهِ وهذه تغلقهُ وتجعل صاحبها مجتنباً من جميع الناس وممقوتاً

ولا يتفق التمدنْ مع خلق الغضب لان ذاك يطلب الهدوّ والتأَني في الامور وهذا يطلب الضوضاء والعجلة * ذاك يطلب ارضاء الناس واستمالتهم وهذا يستلزم اسخاطهم وتنفيرهم * ذاك يقتضي البشاشة والطلاقة وهذا ينتج الوجوم[1] والقنوط * ذاك يجذب بركات الجماعة الى وجهِ صاحبهِ وهذا يسبب اللعنات

ولا يتفق التمدن مع الجبن لان ذاك يطلب الثبات والصبر على الاهوال والمصايب وهذا يطلب التقلقل لدى كل حادثة * ذاك يقتضي الاقدام على تشتيت المخاوف والمزعجات وهذا يقتضي الفرار من كل شيء * ذاك يستوجب استصغار المستكبرات وهذا يقتضي استكبار المستصغرات

---

١ قولهُ الوجوم اي العبوس كما في القاموس اه

العقل بتصحيح التصور واصلاح الحكم وتنشيط الذكر وهذه تقتضي اضعاف الافعال العقلية بايقاع الخمول وافساد الاحكام والقاء الهذيان * ذاك يستلزم حسن الصفات كالاناسة واللطافة وعزة النفس وهذه تستدعي قبح الاوصاف كالتوحش والكثافة والدناءة * ذاك يطلب الالتفات الى الاعمال والاشغال والنشاط وهذه تطلب البطالة والتواني والكسل * ذاك يستميل الى المحافظة على الصحة ورفع اسباب الامراض وهذه تطرد كل قانون صحي وتفتح سبيلاً عظيماً لنهوض كل مرض عضال كالحدار والتيبس وسوء الهضم والاستحالات الآلية ونحو ذلك

ولا يتفق التمدن مع عادة النهم لان ذاك يطلب الاقتصار على كفاية الطبيعة طبق انسانيتها وهذه تطلب تحميلها فوق طاقتها فتكسبها الاخلاق البهيمية * ذاك يطلب الترتيب في المعيشة حذراً من وثوب الاحتياج وهذه تقتضي كثرة الانهماك فتكون داعيةً الى الحاجة

ولا يتفق التمدن مع ملكة الفجور لان ذاك يستلزم الطهارة والعفة وهذه تستوجب الدنس والشهوة * ذاك يلتمس الدعة والتعقل. وهذه تبغى الشراسة والحمق ذاك يطلب الاستحياء والادب. وهذه تقتضي الوقاحة والعهارة

ولا يتفق التمدن مع خلق الكذب لان ذاك يطلب الاستقامة والحقية وهذا يقتضي الاعوجاج والتزوير * ذاك يستلزم الامانة والثقة

ادبية فالطبيعية تدعى ملكات والادبية عادات . وجميعها يرجع الى التطبع لانهُ الاصل لجميع هذا الباب ولذلك يجب عليهِ ان يكون المدار فنقول .ان الانسان حينما يولد على الارض يكون خاليًا من جميع العوائد والاخلاق جيدةً كانت او رديئةً . ولا يوجد فيهِ شيءٌ سوى الاستعداد الى التطبع . فاذا كان استعدادهُ جيدًا مال الى قبول الجيد واذا كان رديئًا مال الى قبول الرديء . فلا يوجد لتحسين العادات والاخلاق الشخصية اهم من اخضاع الاستعداد الانساني منذ نعومة الاظفار الى التطبع بالطبائع الحسنة والتخلق بالاخلاق الجيدة . على انهُ في هذه المدة من الحياة تكون الطبيعة شديدة الخضوع لقبول التأثيرات والانفعالات فلذلك كل عادة وجدت في الحداثة ولم تستدرك طبعت اثرها على الفطرة وكانت ملكة عند الكبر لاتسمح باستئصالها الا تحت مشاق التعب الزائد وهكذا كل خلق . ومتى حصل الانتقال الى سن البلوغ فصاعدًا صار التطبع صعبًا جدًا على الطبيعة ولا يعود للملكة سلطان عليها بل تصير خاضعةً لغلبة العادة التي ليس لازالتها صعوبة

اما كيفيَّة ذلك الاخضاع للاستعداد الانساني فهي تتم بامالة الاميال عن التطبعات بالعوائد والاخلاق المنكرة والحاقها بالمقبولة ولا يمكن التسليم بكون الشخص متمدنًا ما دامت عوائدهُ واخلاقهُ غير موافقة لما يقتضيهِ التمدن من التعوّد والتخلق

فلا يتفق التمدن مع ملكة السكر لان ذاك يطلب تقوية افعال

هدم قصور اثور. والتغفل الذي كسف شمس فارس. والطمع الذي كسر صولجان مكدونيه والضغينة التي مزقت احشاء فلسطين . والكبرياء التي ثلّت عرش الروم. والخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين. والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع اركان دمشق * ثم تنمو بهِ الصفات الداعية الى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والاحسان والوفاء والامنية اذ يعود خبيرًا بغوائل تلك الاطوار الطالحة وعليمًا بنتائج هذه الصفات الصالحة

فبدون تثقيف العقل اذن لا يعدّ الانسان الاَّ مع البهائم التي لا عقل لها ولا يمكن ان يدعى متمدنًا قط

الدعامة الثالثة تحسين العوائد والاخلاق

ان النظر الى عوائد البشر واخلاقهم يعتبر كاعظم دليل على حالة تمدنهم ومقامهِ. فكلما كانت هذه العوائد والاخلاق جيدةً كان تمدّن اربابها جيدًا وعاليًا . وكلما كانت قبيحةً كان قبيحًا. ولذلك يجب على الشعب الداخل في دائرة التمدن ان يبذل الاعتناء كثيرًا في تحسين عاداتِهِ واخلاقهِ كيلا يكون تمدنهُ من باب الدعوى لا الحقيقة كما يشاهد ذلك في كثيرٍ من الامم ولما كانت العوائد والاخلاق تارة تعتبر في الخصوص واخرى في العموم وجب ان يكون كلامنا عليها خاصًا وعامًا

اولاً الخاص. ان المراد هنا هو النظر الى تحسين العادات والاخلاق الشخصية اي التي تخص الشخص المفرد وهي اما طبيعية او

سوى يد القداسة. افلا يضطرب مخافةً من بوائق الزمان عندما
يرى انطاكية مدينة الله العظمى ذات الاسوار العالية والحصون المنيعة
قد اضحت رمةً مضجعة في قبر ابوبال . افلا يرتجف لدى هيبة الايام
اذ يرى مدينة تدمر التي كانت مبنية بالصفاح والعمد قد صارت
اطلالاً دارسةً ورسوماً بالية حتى لايشاهد فيها سوى عواميد هابطة
وعضايد ساقطة وهياكل مهدومة . افلا يهجس كرباً اذ يعاين ان
منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذي لاصوت لهُ .
افلا يقف متحيراً عندما يصعد على راس سمعان ويرى ان جميع ما
كان بحويهِ من المدن العظيمة والقرى الخصبة والمزارع الناضرة
والاديرة العامرة والكنائس الرحبة قد صار خراباً تاماً ودماراً
لامزيد عليهِ بحيث لم يبقَ سوى بعض رسوم واشكال وبعد هذا فلا
تسحقهُ صواعق الاشمئزاز عندما يتاكد ان جميع هذا الخراب هو نتيجة
الجهل والتوحش فبالاجمال نقول ان العلم هو الفاعل الاعظم
لتثقيف العقل والمروّض الاكبر لجماح الطبائع والسبب الاهم لتشييد
التمدن والعمار اذ هو يرفع افكار الانسان الى الحقائق السامية فلا
تعود دائرة على مستحقرات الاشياء ويرسم في مرآة ذهنهِ صور الكائنات
الدقيقة فلا يعود هاذياً بخزعبلات الامور فتنطفي من قلبهِ توقدات
الحسد بنظرهِ الى زوال المحسودات ويطرد من صدرهِ ضواغط
الطمع بادراكهِ حقيقة المطموعات وتتلاشى من روحهِ بقية الاطوار المنتجة
رجسة الخراب كالقساوة التي غرّقت مراكب مصر . والانتطاح الذي

افعالهم قد هبطوا الى الحضيض . لا بل يظهر لهُ ان كثيراً من الممالك العظيمة القوة والراسخة الاركان قد افضت بها قبائح السلوك الى الاضمحلال والملاشاة . وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوّة الاطوار الحميدة الى الاتساع والامتداد ورفعتها الى سماء المجد والكرامة . وخاصةً يظهر لهُ ان افعال الخشونة والتوحش ليس كانت تبدد الممالك وتستاصل الملوك فقط بل كانت ايضاً تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينةً وغنيةً ✡ افلا يشعر بحركة غامضة في اعماق قلبهِ تدعوهُ الى احتقار العظمات الانسانية والمخمخات [1] الكاذبة الخالية وتجذبهُ الى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالاخلاق الحميدة وذلك حينما تمتطي تاملاتهُ السريَّة خيول التاريخ وتجري في برية سوريَّا مثلاً حينما يشاهد ان عظمة ذلك الاقليم القديم العهد والكريم التربة والاصل قد استحالت بفعل الاجيال الخشنة الى دمارٍ مهول حيث لا يرى سوى خرابات تلقي الكآبة على الابصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة بدل تلك العظمات السابقة والمجد الزاهر والغنى الوافر . افلا يطرق تاسفاً اذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال قد صارت نسياً منسيًّا ولم يبقَ فيها سوى شباك الصيادين . افلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى اورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد اصبحت قريةً لا يذكر منها سوى المحلات التي لم يحفظها

---

١ قولهُ المخمخات اي المفاخرات بالباطل اه قاموس

عجائب الخليقة وغرائب الحوادث. فتارة تطير بهِ الى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الاودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية. فيفكر فيما سبب المرتفعات وما احدث المنخفضات وما جمع المياه. واحيانًا تمرّ بهِ على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والانهار المتدفقة. فيقف متفكرًا فيما جمد اليابسة وجمع السوائل الى مكان واحد. واوقاتًا تسيح بهِ في الاقاليم والاقطار فيستوقفهُ اختلاف العرض والطول في ميدان التامل لتباين المناخات والاهوية. وطورًا ترحل بهِ الى بلادٍ لاعدد لها واماكن لاتحصى وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع فيقف متحيرًا بما تحويهِ الارض من الامم والقبائل المختلفة بالمذاهب والمشارب والهيئات. ومندهشًا لما يراهُ من احوال البلدان والسياسات والشرائع * ومعنًا فيما يعاينهُ من الصنائع المتنوّعة الاشكال والتجارات المتشكلة الاحوال وهكذا يطوف بهِ هذا العلم الى اقاصي العالم بدون ان يترك لهُ سبيلاً للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادتهِ غير مبارح صديقًا ولامفارق حبيبًا

وكيف لايبدل الاعمال الرديئة بالصالحة عند ما يكشف لهُ التاريخ حجب الاجيال الغابرة ويطلعهُ على كثيرين من البشر الذين كانت اعمالهم سببًا لاحوالهم ان رديئة فرديئة او صالحة فصالحة. ويظهر لهُ كثير من الناس الذين بواسطة سموّ افعالهم قد بلغوا اسمى المراتب واعلى المنازل. وكم وكم من الناس الذين بواسطة دناءة

في مركزهِ وتدور حولهُ كواكبُ سيارة مختلفة الابعاد والاشكال وجميع ذلك لهُ من السموّ والعظمة ما يخبر بعظم اعمال الله. وكيف ياخذ بذهنهِ الهتك بالقريب بينما تكون الطبيعة هاتكةً لهُ اسرارها ومبدية لديهِ غوامضها. فاذا نظر الى الارض يراها تدعوهُ الى تمييز تراكيب طبقاتها وتعديد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها الى غيرهِ. واذا تامل في الحيوان يراهُ باسطًا انواعهُ لدى حكمهِ وطالبًا منهُ فصل كلٍ عن الآخر. واذا لحظ النباتات يراها كانها تدعوهُ الى معاينة عجائب نموّها وماهيَّة جوهرها وكيفيَّة تغذيتها وعمليَّة انتاجها وتاثير خاصياتها وكانها تكلفهُ احصاء كلٍّ من انواعها وتحديده. تكليفًا فوق وسعهِ

وكيف يرتضي بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمتًا لهُ مشكلاتها وطارحةً عليهِ مسائل غوامضها. فما ينتهي من معرفة صفات عنصرٍ منها وادراك نسبة اتحادهِ بغيرهِ وكيفية قوامهِ الاويبرز لديهِ عنصرٌ آخر ويدعوهُ الى تفنيدهِ فيذهب خابطًا في عباب المشكلات حينما يقابلهُ مولّد الحوامض بايقادهِ وانارتهِ ويطارحهُ مولّد الماء برشاقتهِ ولهيبهِ ويناقشهُ حامل الانوار بلمعانهِ واضاءتهِ ويدهشهُ الذهب بثباتهِ وثقلهِ وتذهلهُ الفضة بوضائتها ونقاوتها ويلطمهُ الحديد بكثافتهِ وصدئهِ ويحيرهُ الزئبق بفرارهِ ونفارهِ

وكيف يسمح لاميالهِ ان تسرح في عالم الشرور والمعاصي حينما تكون الجغرافية سارحةً بهِ على ظهر هذه الكرة الارضيَّة المملوَّة من

نفسهِ سبباً فعّالاً لقبولهِ التأثر بكل صورة تلوح لهُ والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاتهِ كان انضمامهُ في سلك الجمعية اذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الادبية على ستائر قلبهِ وتطبعهِ باخلاقٍ وطباعٍ بها يمكنهُ ان يعارك ويزاحم امواج العالم البشري ويعيش تحت لواء حوادثهِ

غير ان كثرة تقلبات الاحوال والاجيال تادت بهِ الى ان يفقد كل اطوار تلك الفطرة الاولى ويصير من اشر المخلوقات واوحشها. ومن ثم لم يعد الانسان قادراً على الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سذاجة الصفات وسلامة الطباع الّا اذا كان متزيناً بتثقيف العقل الذي يُعتبر كآلةٍ عظيمةٍ بها يمكن لكلٍ من البشر ان يسترجع الى طبيعتهِ ما افقدها التوحش

ولا يتم هذا التثقيف الّا بالتروّض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والادبية ومن المعلوم ان العلم يخلق في الانسان قلباً نقيًّا وروحًا مستقيمةً ويجعلهُ ظافراً بكل الصفات الصافية ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الانساني . ولا يترك لهُ سبيلاً الى التفكر في الامور الدنيّة والاميال المنحرفة وهو الامر الذي تشتق منهُ كل افعال الشر وعليهِ تبنى كل دعائم التوحش * فكيف يفكر الانسان مثلاً في دنائة السلوك عندما يكون الفلك طائراً بهِ الى اعالي الاجرام السماوية حينما يرى الوف الوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شموسٌ هائلة الحجم وكلٌ منها جالسٌ على عرش الفضاء ثابتٌ

لا يمكن احداً تجاوزها . رابعاً وهو الاخير على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وابطال كل عائق لسيرها

والركن الثالث الذي يخص تقوية وسائط الصنائع والاشغال فهو يتاسس اولاً على اثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شانهم وتثبيت ما بهِ يمكنهم اقتطاف ثمرات اتعابهم . ثانياً على توسيع دوائر الادوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف . ثالثاً على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم الى معاناة الاشغال اخيراً على المساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها

واما الركن الرابع الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح وفتح الطريق للزارع . وتعجيل خطوات الحصاد ومنع حشر العشار واحتشاد الخزان . وبملاشاة كل موانع البدار وتسديد جميع مطاليب الارض

واما الركن الخامس الذي يشمل رفع اسباب التعدي فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط وهي حماية المتاع وصيانة الاعتبار ووقاية الارواح

الدعامة الثانية تثقيف العقل

انهُ اذا فحص الجوهر الانساني من حيث فطرتهِ الاولى واصلهِ الطبيعي انما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة والخصال البسيطة حسبما يتبين ذلك من كل انسان يتربى منفرداً عن ازدحامات عالم المخالطة * ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجهِ الى وقاية

السلامة مكان الحرب لان الواحد يبدد والآخر يجمع ومتى نزل احدهما منزلة الآخر تزعزعت اساسات الهيئة

رابعًا حالة الصالح العام٭ان اهم دواعي السياسة واعظم بواعثها هو النظر الدائم الى الصالح العام وتواصل السهر عليهِ بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها واحكمتهُ ولم تلتفت الى هذا الصالح او تغافلت عنهُ فلا تعتبر الاكمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية الذي لا يمكن دوامهُ منظومًا ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة لهُ اذ ان اهمال ما يسبب العمار هو تسبيبٌ لوقوع الخراب وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يؤول نفعهُ الى العامة اجمالاً وافرادًا ودفع ما يقضي الى الضرر

وذلك يستريح على خمسة اركانٍ . وهي . تمهيد سبل العلوم . وتسهيل طرائق التجارة. وتقوية وسائط الصنائع والاشغال. ومساعدة الزراعة والفلاحة . وقطع اسباب التعدي

اما الركن الاول الذي يناط بتمهيد سبل العلوم . فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لاجل كل من يرغب . وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق

واما الركن الثاني الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة فهو يتوقف اولاً على تقريب ابعاد الاسفار بواسطة اصلاح الطرقات . ثانيًا على ازالة مخاوف ومعاثر الطريق وايقاع الامان والسهولة . ثالثًا على وضع حدود ونظامات تجري على كل ارباب هذه الحرفة بحيث

الامراض الالنهاية والزيادة عند نقصانهِ دفعاً لنهوض العاهات الافتقارية. هكذا يجب ان تعامل الاحكام السياسية في محكوماتها حذراً من وقوع البلبال. فلا يستعمل الصرامة والقساوة والجور والانتقام مكان الرفق والشفقة والحلم والاغضاء. وبالعكس . بل يجب توقيع كلٍّ في محلهِ مطابقاً بحيث اذا زاد او نقص يجب تعديلهُ لاخلالهِ بالواجب السياسي

ولما كانت حوادث الهيئة الاجتماعية تختلف جرماً وموقعاً كان لكل منها شان يستوجب حكماً يلائمهُ ويطابقهُ ولكل حكمٍ قوانين تناسبهُ وتشاكلهُ . وهكذا تكون الاحكام وقوانينها مختلفةً اختلاف الحوادث الجارية فمتى استعمل الواحد محل الآخر نشا خلل عظيم في نظام السياسة يستدعي خلل الهيئة جميعها فلا يسوغ تنزيل واجبات الكبائر منزلة واجبات الصغائر ولا يجوز ايقاع الحوادث العظيمة موقع الحوادث الحقيرة بل يجب اعطاء كلٍ حكمهُ ليستوفي كلٌّ حقهُ

وبما ان الاحكام والقوانين تعتبر كاجزاءٍ تؤلف جسم الشريعة في عالم السياسة وجب ان يكون كلٌّ من هذه الاجزاء ثابتاً على نقطة وضعهِ وبناءً على ذلك نرى انهُ متى زاغ احدها عن الوضع المعين لهُ يقع حالاً في حركة الاضطراب ويستفز البقية الى مشاركتهِ في تلك الحركة ولم يرجع الى سكونهِ ويسترجع ما لم ينقطع تاثير الفاعل بحيث اذا دام متواصلاً ينهدم بناء ذلك الجسم ويتشتت شمل اجزائهِ حسبما يتم في الاجسام الرنانة * ثم ولا يستعمل الحرب مكان السلامة ولا

لحاف الاعياء والوصب . فهل كل هذا التباين لايكفيهِ حتى يرغب ايقاعهُ ايضاً في موقف الحق الذي يستوي عندهُ الجميع . وهل يسوغ لارباب السياسة ان يقبلوا وقوع هذا التباين ويجحفوا بذلك المسكين الذي بدونهِ لاتصل قوتهم الى مواقعها فلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية

ولماذا يوجد حق لاصوات الاغنياء فترن في قاعات السياسة ولايوجد هذا الحق لاصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والاهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات * فلا شك لسان السياسة نفسهُ ينادي بوجوب حالة الاستواء ويصرخ ضد الضد

ثالثًا حالة المطابقة * ان منزلة السياسة من الهيئة الاجتماعية هي كمنزلة الدم من الجسد . فكما ان هذا السائل يقوم بتغذية الجسد وبدونهِ لاتثبت الحياة هكذا السياسة تقوم بعول تلك الهيئة وبدونها لايثبت النظام. وكما ان الدم يجب ان يكون مطابقًا في مقدارهِ ونُسَب اجزائهِ لما يحتاجهُ الجهاز العضوي بحيث اذا لم تحصل هذه المطابقة بزيادة او نقصان لاتلبث الاعضاء على صحتها وتقع في حالة الاضطراب الوظيفي . هكذا ينبغي ان تكون السياسة مطابقةً بقوانينها وشرائعها لما يقتضيهِ واقع الحال بدون زيادة ولانقصان . ومتى عدمت تلك المطابقة زاغت الهيئة عن واجباتها واضطرب كل نظامها وكما ان السائل الدمويّ يستلزم التنقيص عند زيادتهِ استدراكًا لوقوع

الحكومة قد يستلزم وجود نتائجها ما بين تبعتهِ وحواشيهِ وهو الامر الذي لهُ دخلٌ كبيرٌ في واجبات السياسة اما العكس فبالعكس وذلك كالمركز الذي تتوقف استقامة اقطارهِ على استقامة وضعهِ فبمقدار كونهِ مستقيماً تستقيم وبمقدار كونهِ منحرفاً تنحرف

ثانياً حالة الاستواء * ان اعظم المقوّمات لصحة السياسة واقامة الحق هو مجرى شرائعها متساويةً على كل ابنائها بدون ادنى امتيازٍ بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير. ولا موازرة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حدٍّ سواء كيلا يقع خللٌ في نظام الحق لان كل فئةٍ من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليها . فكما ان العظماء والاغنياء هم القوة الواصلة كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة. فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير. ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ولم تحرس اموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة * لعل ذلك الغني عندما ياتي من محل ملاهيهِ ومراسحهِ الى مسكنهِ الوسيع ويضجع على فراشهِ المصنوع من ريش النعام وينظر الى رقوش حجرتهِ ونقوشها لا يفكر في ذاك المسكين الذي بعد ان يكدّ ويكدح طول النهار مقاسياً حرّ صيفهِ ومتكبداً برد شتائهِ لاجل تشييد ذاك المسكن وتنميق تلك الحجرة يذهب الى كوخهِ الحقير ويأكل خبزتهُ اليابسة مع اولادهِ العراة الجائعين ثم يضجع على طراحتهِ المخرقة تحت

ويروح المحقوق غالبًا والمحق مغلوبًا . ثم يقتضي ان يكون عادلاً لان العدل يثبت الحكم ويوطدهُ ويجعل الحاكم محبوبًا من جميع الناس ممدوحًا من الاخيار مهابًا ومخافًا من الاشرار الذين لالجام لجماح شرهم سوى هيبة الحاكم . وخلاف ذلك الظلم لكونهِ يهدم بناء السياسة ويعارض اتجاهات الحق ويلقي المقت والكراهية في قلوب الشعب وينهج سبيلاً رحبًا لهجوم العصاة وتمزيق الهيبة ثم يجب ان يكون قنوعًا لان الطمع نتيجة التوالع بالمال وحيثما وجد الولع بالاموال يوجد الاحتشاد والارتشاد وهما الصفتان اللتان متى باشرتا قلب الحاكم اراغتاهُ عن الحق وجعلتا بينهُ وبين الصالح العام حجابًا كثيفًا ثم يجب ان يكون ذا اناة لان الاناة هي الآلة الوحيدة لاستقصاء الحقائق من صدور الدعاوي حيث يقوم العلاج . اما العجلة فعليها يسافر الصواب . ثم ينبغي ان لايكون سكيرًا على انهُ لايوجد اعظم طارد للرشد والنباهة من مداناة الدن ومخامرة الخمر فمتى ذهب رشد الحاكم فسدت الحكومة وبطل الحق . ثم من الواجب ان يكون شجاعًا لان الشجاعة درع للرؤساء وردع للمرؤسين ولا عار اعظم من جبانة الرئيس لانها تبقيهِ عاجزًا عن اقتحام صعوبات الرياسة وتصيرهُ ريشة ترتجف لدى هبوب كل ريح . ثم من الضرورة ان يكون غير مازحٍ لانهُ متى لازم المزاح سخرت بهِ الناس واستهجنتهُ وربما استقلت بعقلهِ فلا يعود احد يعتبر احكامهُ مهما كان حازمًا

ولاشك ان وجود صفات كهذه في الشخص الذي يتناول زمام

السياسة . ثانيًا تثقيف العقل . ثالثًا تحسين العادات والاخلاق . رابعًا اصلاح المدينة . خامسًا المحبة

الدعامة الاولى تهذيب السياسة

انهُ لما كان نظام العالم الانساني لا يمكن قيامهُ محفوظًا من كل خللٍ الاَّ بسياستهِ كانت هذه الشريعة تقتضي تمام الالتفات الى تهذيبها وتحسينها لكونها محورًا يدور عليهِ عالمٌ كبيرٌ يستحق كل الالتفات الى نظامهِ . ولا يوجد لهذا التهذيب اساسٌ اخر سوى توطيد الحق وتحسين الهيئة لانهما المركز الاول الذي يتوقف عليهِ مدار السياسة العامة . ومتى طرأَ على الاساس خللٌ ما لحق ذلك الخلل بكل ما بني عليهِ * ولا يمكن استمرار ذلك الاساس وطيدًا الا تحت جملة احوال وهي . اولاً حالة الشخص الذي يتعاطى السياسة فهو يجب ان يكون رجلاً من اصل كريم وموسر . لانهُ متى كان هكذا يوجد ذا تربية حسنة وصالحة فيكون ذا صفات حميدة واخلاق راضية حسبما يستلزم حسن التربية ويقتضي صلاح الاحكام . ثم يجب ان يكون مروضًا بالعلوم الرياضيَّة والادبيَّة ومثقفًا بمعرفة واجبات الشرائع والقوانين . لانهُ اذا كان جاهلاً هذه الامور لا يكون قادرًا على تتميم خدمتهِ ويعود حينئذٍ مضطرًا الى الاسترشاد من الاجانب اوتحكمهم وهم ربما يضلونهُ او يخونونهُ لاغراضٍ ذاتية لهم . فتصير كل احكامهِ عبثًا وينتج في نتائج اشمئزاز الجمهور . ثم ينبغي ان يكون فطنًا نبيهًا لانهُ اذا كان خاملاً لا تجد دقائق السياسة محلاً في عقلهِ فيضيع الحق وتضطرب الاحكام

خدًا * انهُ ولئن كانت كل هذه المبادي صحيحةً فقد لايمتنع نهوض التمدن في وسطها لان قوَّة انتشارهِ تغلب كل تلك الصعوبات كما جرى ذلك في اقوامٍ كثيرين مختلفي الاصل والفصل * اظن انهُ بدون قوَّة المعجزات لايقوم انتشار التمدن ما بين هذه القبائل . واذا كان جرى ذلك ما بين اقوامٍ متعددين مختلفين اصلاً وفصلاً فهم قد كانوا متفقين ميلاً ورأيًا * لايجب عمل المعجزات هنا ولا الآيات* اذن باي قوَّة ينتشر التمدن* بقوَّة دعائمهِ المرتكزة على قلب الانسان طبعًا قبل انحرافهِ الى الفساد

كم دعامة يوجد للتمدن

خمس دعائم

هل يمكنك تعديدها لانني افتكر انهُ يوجد اكثر من ذلك

نعم يوجد ولكن ينحصر الكل في تلك الخمس

فاشرح اذن لي ذلك

الفصل الخامس

التمدن

قال الفيلسوف* ان التمدن في اللغة الدخول في المدينة وفي الاصطلاح ناموسٌ يرشد الانسان الى تجويد احوالهِ الطبيعية والادبية . وهذا الناموس يُبنَى على خمس دعائم وهي . اولاً تهذيب

هو اعتماد الحضرة الملوكيَّة على ارجاع العصاة الى اوطانهم وممالكتهم

نعم قد بلغني ذلك ولكن على شروطٍ كثيرة منها ارفاقهم بجماعةٍ من طرف دولتكم كنظارٍ على كل احوالهم واحكامهم ومنها الزامهم باتباع شرائع التمدن وقوانينهِ

ان اولئك القوم هم محتالون منافقون وليس لهم ذمم ولا عهود تربطهم. يقولون ما لا يفعلون وفي كل وادٍ يهيمون. اما تعلم انهُ لا يوجد لجماعة الخشونة والبربرية ميثاقٌ سوى الكذب ولا شريعة غير الاحتيال والمكر. ولا حكمٌ عدا التعدي والظلم. ولا حاكمٌ خلاف الرشوة. ومن اصعب الامور اخضاعهم بدون تبديد شملهم وهتكهم عن آخرهم

نعم كل ذلك هو اكيد ولا ريب فيهِ ولكن متى شاعت بينهم شرائع التمدن وطفقوا يتعلمونها من نعومة اظفارهم وقامت عليهم نظارٌ ومساعدون من طرفكم. لا يعودون لابثين على تلك الخصال التي ذكرتها ويصيرون بعد قليلٍ من الزمان طبق المراد

نعم ربما يتم ذلك ولكن بعد الف عام. ولماذا كل هذه المدة *

لانهم شعب مجموع من كل قبيلة وملة تحت السماء فكل حزب منهم يبغض الاخر ويجتهد في خرابهِ ودثارهِ بناءً على ان المحبة لا تقوم في اختلاف الاجناس ومتى بطلت المحبة زال التمدن لانها الاساس الاول لهُ ومتى زال التمدن تمزقت أحشاء الوطن وخفقت سناجق العبودية. فلا يمكن رفع كل هذه الصعوبات ما لم يمرّ زمانٌ طويلٌ

مالي ارى دخان الهيجاء يتصاعد الى الآن من منخريك ياايها القائد الشجاع

ولماذا يتناثر شرر السخط من عينيك ولم لم تلقِ عن وجهك لثام الكمود وانت الظافر بالعدوّ والقاهر صفوف المردة والمنادي في مرسح الكفاح ها انا الغالب. هل الغضب لايرحل بعد حلول الانتقام وهل الانتقام لايروي لدى فيضان نهر الانتصار. وكيف لايتبسم الانتصار عندما يظهر اكليل الغار. رحِّب سعة صدرك فقد انزلت بالاعداء نكبات الضيق. شدّ حقويك بالقوة فقد ضعفت عزائم الاخصام. انقذ اطوار وجهك من اسر الغيظ فقد سقطت دولة العبودية. كيف يزأر الاسد والفريسة ترتعد بين يديهِ. كيف يعتكر البحر والرياح قد سكنت امامهُ. كيف يدلهم الصباح والليل يتمزق ازاء وجههِ * نعم قد بذرت الحروب ولكن حصدت السلامة. نعم قد غرست القتال ولكن جنيت الظفر. نعم قد أمت العبودية ولكن احييت الحرية. نعم قد قيدت البربرية ولكن اطلقت التمدن. فاحكم بما شئت واقضِ ما انت قاضٍ. فاجابهُ القائد متبسمًا وكانهُ دخل في خلقٍ جديد

ان دوام لوائح الغضب والكآبة على وجهي الى الآن ليس مسبَّبًا عن تلك الحروب والمواقع التي ملكنا بها الغلبة والنصر والتي تستدعي ظهور لوائح الفرح والابتهاج بل عن سببٍ مهمٍّ جدًّا * اجاب الفيلسوف وما هذا السبب

المذكورومن يعلم ان مكدونية التي ابتلعت تينك الامتين لم تكن هكذا ومعلوم ان رومية التي خفق نسرها على المسكونة قد كانة اكواخًا[1]

ولما فرغ الفيلسوف من مقالتهِ هذه نظر اليهِ الملك نظرة المندهش وقال لهُ٭ولئن كان خطابك هذا مبنيًّا على نتائج الوساوس والظنون مفعمًا من احلام المخيلة واوهام الفكر الاَّ انهُ مع ذلك لايخلو من رائحة الصواب وسمة الحقيقة فلا باس فيهِ

وهكذا رمقتهُ ملكة الحكمة بمقلة المرتضي واستصوبت خطابهُ

وبعد وقوع السكوت في مرسح المطارحة برهةً زهيدةً وخلو الكلام من الموضوعات .اخذ الملك يناجي الملكة بصوتٍ سرّيٍ لم اعلم من موضوعهِ سوى الاهمية

واذ رأى الفيلسوف ان بواعث المناقشة صارت تحول بينهُ وبين الخواطر . نهض مخليًا لها ساعة المناجاة وسار قاصدًا جهة قائد جيش التمدن الذي كان يتخطر على مسافةٍ .ولما دنا منهُ وتلاطمت النظرات تبادلا مصافحة الاكف وسلما على بعضهما ثم جلسا معًا على جذع شجرةٍ عظيمة قد اضجعها الزمان

ولما مكن الفيلسوف نظرهُ من القائد وجد عينيهِ متقدتين بلهيب الغضب . ووجههُ مبرقعًا بسحابة الغيظ . واثوابهُ مضمخةً بالدماء علم ان هذه الظواهر ناجمةً عن مواقع الحروب فاخذ يطيب خاطرهُ بعباراتٍ لطيفة ويبشرهُ باقتطاف ثمرة مشروعهِ قائلاً

١ قولهُ اكواخًا في القاموس الكوخ بالضم والكاخ بيت مسنم من قصب بلا كوة بالجمع اكواخ

يتراكضون الى الاسلحة افواجًا ويندفعون من ابواب الاسوار كاندفاع الصواعق من بطون السحب وهم يصرخون لاجبن الاوراء السور . وكان الامير ساعيًا امامهم كاحد الجنود . اما النساء فكنَّ يحافظنَ على الاولاد ويجهزن ادوات الحرب . وهكذا اخذت الحرب تنشب بين الجيوش . فكانت اصوات المقاليع ترن بين الاودية . والحجارة تترامى بين الصفوف . وعمد الحديد تتساقط على الرؤوس. ولم يزل حتى صارة الصدور تتلاطم والايدي تتقاوم وكان الغبار يتصاعد من الارض كتصاعد الدخان من فم الاتون. وما برحت هذه الملحمة حتى اخذ جيش العدوّ يتقهقر الى الخلف ناكصًا على الاعقاب وصارت جيوش المدينة تنادي خلفهُ بالغلبة والظفر . ولم تلبث ان شتت شمل الاعداء ونثرت نظام صفوفهم واستاسرت اكثر اجنادهم

فوقعت خشية الامير في قلوب سائر الاخصام وعمت هيبتهُ على كافة الصقع وازدادت محبتهُ في نفوس شعبهِ الخاص وصار الجميع يقدمون لهُ الخراج ويقولون ليعش الملك ولتدم المملكة

وهكذا لم تزل هذه المملكة تنمو وتتسع ويمتد سلطانها الى الاباعد حتى صارت اخيرًا واسعة السياسة قائمة الشرائع والروابط بحيث لم يمكن لاحدٍ ان يعيش الأَّ تحت ذلك النظام

فحينئذٍ يظهر لنا مما تقدَّم انهُ قد كان ظهور السيادة والسياسة على هذا النمط في العالم القديم وعلى ذلك المنوال كان قيام الممالك . فمن يعلم ان مملكة اثور او فينيقية لم يكن ظهورها وامتدادها على النسق

على محلٍ عالٍ وانشا يقول

هوذا الغربا قد احدقوا بنا فدونكم والطراد . الاعداء قد هاجمونا فعليكم بالجلاد . انتم الاسود وهم الكلاب . فواعجبًا لكلب يقتحم الغاب هيًا الى النزال هيًا الى القتال . انزلوا بهم الحسام المسنون وانظروا اي منقلب ينقلبون . ولما فرغ الامير من مقالهِ برز رجلٌ عليهِ سيما الفصاحة والحماسة ورفع صوتهُ في وسط الجمع وجعل ينشد

الحربية

فيقوا من الغفلات يا اهل الوطن ان العدوَّ دنا وها نقعُ الفتن
حتى مَ انتم يابزاةُ روابضٌ هبوا فقد حام الغرابُ على الدُمَن
هجم العدوّ وها الغبار وانتمُ من فا الغبار ستنسجون لهُ كفن
لاتجعلُ الغربانُ في سعة الفلا يومًا اذا نهض العقابُ من الوكن
ناداكمُ الوطن الذي قد ضمكم في حضنهِ وسقاكم لبن المنن
كروا على الاعداء كرَّ الاسد يا اسُدَ الوفاء فهم ثعالبة الخون
فاصغوا الصوت ابٍ لكم يرجو الحمى منكم فهيا طاردوا عنهُ المحن
او ما ترون الدمع منهُ لاجلكم يهمى فقوموا نشفوا دمع الوطن
لايحسن الموت الزؤم لدى امرىءٍ لكن فدى الاوطان موتكمُ حسن
فتقلدوا عِدَدَ السلاح وبددوا
جيش العدى وخذوا امامكم الزمن

فما فرغ من انشادهِ الحربية حتى صارت اعين القوم تنثر شرر نيران الحمية التي كانت تتوقد في القلوب . فاخذ جميع الرجال

مختالةً بسربال الهدو والسلامة . تطفح في حاناتها كاسات السرور . وتشدو في حدائقها بلابل الحبور . واذا عجاجٌ يثور عن بعيدٍ ونقع غبارٍ يتصاعد الى الجو . حتى عاد يُظن ان زوبعة شديدة قد نهضت من جوف الثرى وهمت ان تكحل اعين السماء باثمد تراب الارض* وكانت اصوات كهدير هجمات المياه تهبُّ من تلك الجهة . فصلبلٌ تمازجهُ قعقعة اللجم وصهيل تخللهُ نقرات حوافر الخيل . وما كان الاَّ كتردد الفكر بين شكٍ ويقين حتى اسفر ذلك الغبار عن جيش جرار يتموَّج على الصهوات ويفري بطون الفلوات

فلما نظرت عينا الامير ذلك العجاج الثائر وسمعت اذناهُ تلك الاصوات الضاجة لم يعد عندهُ ريبٌ ان عدوًّا سمع بجلال مدينتهِ فدفعهُ لهيب الحسد الى اشهار الحرب وايقاع الحصار

ولما ثبت عندهُ ذلك الغضب المقبل اخذتهُ ثورة الحمية ودارت في راسهِ حرارة الوطن ونادى في جميع المدينة معلنًا صوت الحرب حينما صارت كافة الاهالي فريسةً ترتعد بين مخالب الجزع والهلع لما عاينوا ما لم يعاينوا . فاوعز اليهم ان يجتمعوا في احدى الساحات الفسيحة رؤساء ومرؤسين رجالاً ونساء كبارًا وصغارًا اغنياء وفقراء بدون ادنى امتياز او ميز . لكون الجميع يلزمهم ان يحاموا عن حقوق الوطن ويقتسموا مطاليب محبتهِ سوية لوجوب حقهِ على كل من لا ينكر عليهِ حق التمتع بخيراتهِ

وعندما تم الاجتماع وشملت النخوة كل الجموع وقف ذلك الامير

لاميرنا برجًا يبلغ راسهُ الى السماء فكان البعض يقطع من الجبال حجارة . والبعض يصنع طينًا وآخرون يشوون لبنًا . وغيرهم بسرد ترابًا . وما برحوا يحفلون بموسم البنيان حتى انتصب برج عظيم وصارت تخفق عليهِ راية امير القبيلة

وهكذا شرع كلٌّ من الناس يبني لهُ بيتًا ولمواشيهِ مذودًا حتى قامت مدينة عظيمة المشاد يضج في شوارعها افواجٌ وافرة من العباد * ولما صارت الاسواق تطن بطارق معامل المعادن . والشوارع ترن باصوات الصنائع والاشغال والساحات ترتجف تحت اقدام المحافل والمعامع . والمراسح تتموّج لدى لطم امواج الاصوات الاحتفاليَّة الآتية من افواه آلات الطرب صار يدوي في آذان الشعوب المتفرقة صوت ذلك الضجيج المرتفع واللغط الهادر فكانوا يتقاطرون اجواقًا اجواقًا ويخيمون في ظلال المدينة طالبين من سكانها ان يقبلوهم في الجوار لكي يتخلصوا من مشاق البادية ويفوزوا براحة الحضر

وهكذا كانت تلك المدينة تقبلهم بكل اكرام على شرط ان يخضعوا لاحكامها وشرائعها ويؤدوا الاعشار لاميرها . فلم تلبث ان تعاظمت جدًّا وتضاعفت مساحةً وسكانًا وصارت محاطةً باسوار رفيعة وحصونٍ منيعة حتى اضحت مركز رهبةٍ يدور عليهِ احترام القبائل وموضوع عظمةٍ يُجل عليهِ حسد البشر

وبينما كانت هذه المدينة الزاهرة رافلةً باذيال اليمن والكرامة.

ويحامون عن حقوقهِ وبنيهِ بكل مقدرتهم. وهو كان يضاعف اهتمامهُ بجميع صوالحهم العامة والخاصة غير مفتكرٍ الا في دوام راحتهم ولا ملتفت الاَّ الى وقايتهم من كل المزعجات مسميًا اياهم شعبهُ واولاده

ولما كان لا يمكن لنظر الراوي ان يدرك جليًّا كيفية امتداد تلك السياسة على العالم ولا ان يستوضح حقيقة المسلك الذي نهجتهُ لها الاقدار لما يعارضهُ هناك من ظلمات الاحقاب والاعصار وجب عليهِ حينئذٍ ان يستخدم العقل كمصباحٍ لكي يمكن لاعينهِ بواسطة اشعة الانتقالات الفكرية ان تنفذ في تلك الظلمات الدامسة فتفوز بمشاهدة ما وراء ذلك

فهلمَّ اذن يا ايها الراوي واتلُ علينا بقيَّة ما جرى هنالك واخبرنا عما عثرت عليهِ من المواقع بعد ان استطلعتَ العقل نيرًا في اوج الغوامض

انني بعد ان اولجت نظري طويلاً في بحرٍ زاخرٍ من الظلام الهائل حيثما كانت امواج التيه والمعاثر تتلاطم تحت مهب عواصف الايام والليالي انفذتهُ اخيرًا من هذه اللجج العميقة الى سهل فسيح الامد يعانق بباع نهايتهِ افق البداية . واذا مرسحٌ عظيمٌ قد انفتح امامي. واذ كنت عاجزًا عن استجلاء الاشباح اللاعبة فيهِ تمامًا لشدَّة توغلهم في عباب القدميَّة وضعت على اعيني نظارة الاستقراء وجعلت اتامل

فرايتُ جموعًا عديدةً من الناس قائمين بمهمات عظيمة ومقيمين ضوضاء حافلةً وهم يصيحون بعضهم على بعض قائلين هلموا نبتني

واثمارها مضاعفةً . فصاروا يدفعون الاعشار لاميرهم اجرةً لما كان يعانيهِ لاجلهم لانهُ كان يحمي برجالهِ مزارعهم وحقولهم ويمنع تعدّي هذا على امتعة ذاك . مدافعاً عن تخومهم هجوم المغتصب . ساهراً على جميع احوالهم السياسيَّة بدون ادنى خللٍ في ترتيب الجمهور . حاكماً ما بينهم بالعدل قاضياً بالانصاف ناشراً على الجميع راية شريعة واحدة . غير ملتفت الى الامتيازات الادبية ما لم يكن لاربابها نفع للصالح العام . مجتهداً بكل امكانهِ في راحة شعبهِ ورفاهيتهم * عارفاً ان من ياخذ اجرتهُ يطالب بالعمل واذا لم يعمل يسقط من عين ذاتهِ بحيث من لا يؤثر ان يعمل فلا ياكل . عالماً ان السياسة او الرياسة اذا وقعت في غير محلها تطلب من الشعب انقاذها . غير ماخوذٍ بخمرة حب الرياسة التي متى خامرة العقل منعت بابخرتها الكثيفة نفوذ اشعة الصواب فيهِ . متيقظاً لكل واجباتهِ . صاحياً في كل اعمالهِ ذا سلوك حسن مع الجميع. محبّاً للغرباء قادراً على السياسة. لاسكيراً ولا ضرَّاباً ولا طمَّاعاً . وبعد مضى فترةٍ من الزمان صار اولئك القوم ينحتون من الجبال حجارةً ويشوون من التراب قرميداً ويوقدون من خشب الشجر ناراً

ولما رأى اولئك القوم ان هيئتهم الاجتماعية قد انطوت على كل شروط الامن والسلام وصارة حديقة حياتهم تزهو باثمار الدعة والسكون تحت سياسة اميرهم واعتنائهِ اعلنوا جميعهم وجوب الطاعة والانقياد لهُ دافعين قلوبهم الى محبتهِ . وصاروا يسمون ذواتهم عبيده

ان هذه العيلة قد اغتنمت لذة العيش في ذلك المحل الخصيب فتمكنت به آمنة وصارت تعيش بنتايج الارض وحواصل الحيوانات المنفردة هناك وتسلك تحت ارشاد الكبير منها خلفًا فخلفًا . ولم تزل مع تقدم الزمان تنموا وتتسع بانضمام اخرين اليها حتى صارت جمهورًا غفيرًا يجري تحت سياسة ذلك الكبير الذي كان يخترع شرايع وقوانين يلتزم باعتناقها كلٌّ من هذا الجمهور لدفع وقوع الخلل في نظام الجمعية . وبناءً على ذلك سموهُ اميرًا * ولكون المواشي والانعام قد كثرت ايضًا وتعاظمت هناك لتواصل الداخلت وانقطاع الخارجة كما تطلب طبيعة حيوان الكلاء حيث يوجد الانسان لم تعد من ثمَّ تلك البقعة كفوًا لاشباع الجميع بدون توجيه الاعتناء اليها فصارت القطعان تتشتت ولذلك بادر الناس الى فلاحة الارض وتهذيبها بعد ان تعلموا العمليَّة الانباتيَّة من نفس الطبيعة لانهم كانوا يراقبون كيفيَّة هذه العمليَّة من السنابل او القصلات التي كانت تطرح الحبوب او البزور في التراب بعد النضج فتندفن هناك ثم تنهض ناميةً على شكل الاصل

ولتسهيل اجراء التقليد للطبيعة بالفلاحة شرعوا يستخلصون المعادن الصلبة من مدافنها ويعاملونها على النار الموقدة من حطب الغاب . فيسكبونها آلاتٍ ويستخدمونها لحرث الارض وتحريك الاثقال آخذين الثيران اعوانًا لهم

وعلى هذا النمط اخذوا يتمتعون مع مواشيهم بغلات الارض

ما زال مد النور يدفع في العلا جزر الظلال كعاصف لغبار
حتى امتلا جوف الفضاء من الضيا وزهت بذلك كافة الاقطار
والنهر اصبح بالسنا متموجًا يجري برد الضوء للنظار
فترنم القمري فوق غصونهِ طربًا وفاحت نسمة الاسحار
والنسر هب الى العلا كانهُ يبغي المسير مع السحاب الجاري
ومن الغمام الشمس حين بدت حكت
وجه الحبيبة لاح تحت خمار

واذ افاق من غفلات هواجسهِ نظر الى اولادهِ ونسائهِ فراهم جالسين حولهُ كغروس الزيتون وهم يتعاطون كؤوس الحديث فاخذ يخاطبهم هكذا * ها ان معارض الصدف قد دفعتنا الى هذا المكان الفاخر فلنلبث بهِ ولا نحد عنهُ وعلى ما ارى انهُ لا يعوزنا شيء هاهنا مما تحتاجهُ حياتنا فها اشجار تطرح علينا افياءها وتنثر اثمارها وينابيع تدفق لنا مياهها ومواشي تسمح لنا بالبانها ولحومها. واذا ارعد البرد فرايصنا وغرّقتنا الانواء نصنع من صوف هذه الحيوانات ثيابًا تدفينا ومضاربَ تقينا. فاشربوا هنيًّا وكلوا مريًّا في جنَّاتٍ تجري من تحتها الانهار حيث لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون

فولين كان التاريخ يعجز عن تمزيق حجاب القدمية القصوى ليكشف لنا تفصيل ما احدثهُ الزمان مع تلك العيلة هناك . الّا انهُ مع ذلك قد ينهج لنا طريقًا نسير بهِ على قدم الاستقراء الى حيث نقول

بكل اكاليل الجمال وسكبت عليها مياه البهجة والازدهار والتفت الى جمهور ذريتهِ وقال . هوذا مدبر العالم ومديرهُ قد ارشدنا الى مقرّ الراحة في مكان خضرةٍ حيث لابكا ولاتنهد . فهلموا لنمكث هنا تحت هذه الافياء الممتدة بين الزهور والينابيع ونستريح مما قاسيناهُ من النصب والوصب في تلك البرية الجدباء * فاحنى كلٌّ منهم راسهُ امتثالاً وساروا جميعًا تحت ايعازاشارتهِ الى حيث المحط. فكان حلولهم تحت ظلال دوحة لاتلفحها لفحة الرمضاء ولا تخترقها اشعة البيضاء * ولما استروح الكل ريح الارتياح وطفحت على شفاههم تبسمات الافراح جعلوا يتبادلون احاديث البارحة ويتذكرون كل غاديةٍ ورائحة اما ربهم فقد كان شاخصًا في الافق حيثما كانت تتراقص بنات الصباح ذوات الاكاليل الذهبية امام ملكة الشرق الراكبة على عجلةٍ نارية ومندهشًا بما كانت الانوار ترسمهُ على وجه الطبيعة ذات الحلل السندسية وكانَّ لسان حالهِ يقول

هوذا الصباح بدا وبالانوار طبعت وجوهُ الكون في الابصار
والشمس قد نشرت بيارقها على قمم الجبال امام جيش نهار
وعلى عمود الصبح قد شاد الضحى برج النهار مسلحًا بالنار
والشرق اوتر قوس نور وانثنى يرمي على الدنيا سهام شرار
وغدا يزج على الرياض اشعةً كالنار تحرق اروُس الاشجار
والفجر مدَّ على السما بحر السنا فهوت دراري الاوج في التيار
والليل مزَّق ثوبهُ حزنًا على فقد النجوم وغار في الاغوار

الارض المحلة وتعب تلك الحيوة التائهة وتمتع برغيد العيش . فما تم كلامهُ الّا ورأى اقدام جميع تبعتهِ تهرول امامهُ الى المحل المومى اليهِ

ولم يزل هذا المهاجر يطوي اديم الثرى حاديًا رحل رفاقهِ آخذاً هدير الحيوانات دليلاً الى حيث المناخ حتى انتهى بهِ المسير اخيراً الى بقعةٍ رحبة الارجاء. فوقف للحين واستوقف واطلق نظرات التامل ليرى جليًا ما كان يلحظهُ عن بعدٍ خفيًّا واذا هو منتصبٌ في غوط قد كستهُ العناية بوشاح الجمال العجيب . وكللتهُ الطبيعة بانوار الفصل الرطيب . فهناك كانت الشمس تسبل اشعّة ضحاها على طلعة ذلك الروض الازهر فيزدهي بالوان اجنحة الطاووس. هناك كانت الانداء تتراقص على ثغور الزهر الانور فتمثل تراقص الحبب في افواهِ الكؤوس . هناك كان الجوّ الصافي يتعطر بانفاس السحر فتهب نسماتهُ ناشرةً على الدنيا اطياب البشرى . هناك كانت عرائس الربيع ينثرن من رؤوسهنّ لآلئ النور على حدائق الرياض ويرسلنَ نظراتهنّ الصاحية الى آفاق الارجاء الغرّاء . هناك كانت رؤوس اشجار الخمائل تحرَق بنيران انوار المشرق واقدامها الثابتة تغرق في مسيل الماء المتدفق . وقدود اغصانها تترنح تحت عقود الزهور لدى خطرات الرياح . وصفحات اوراقها تتلامع بلمحات النور تلامع الاسنة والصفاح . هناك كانت الاطيار تصدح باختلاف الالحان . هناك كانت المواشي تسرح متنوعة الابدان * فلما شاهد هذا الانسان سمو تلك البقعة الزاهرة وكيف ان الطبيعة قد توجتها

في فسحات القفر الذي كان يقذفهُ بثوران العواصف القاصفة ويلذعهُ بلهبات الهجير المستعر بين اثاني الجنادل والاكام. ولامفراً من زوابع الجوّ التي كانت ترشقهُ بمجزاتها اذ ترسل بروقها لدى اعينهِ فتخطفها دهشة. وتطلق صواعقها في اذانهِ فيرتعد جزعاً وتسكب انوائها على هامتهِ فيخر ساجداً لديها طالباً رحمةً كانهُ يطلبها من الهٍ يستحق العبادة كانت الارض وقتئذٍ غير محروثةٍ ولا مزروعةٍ وعديمة كل فلاحةٍ ومع ذلك فقد كانت تزهو ببساطها السندسي الذي بسطتهُ عليها يد الطبيعة تحت مضارب السحاب منسوجاً من كل شجرٍ عظيمٍ ونباتٍ وسيم

فبينما كان احد افراد هذا النوع العظيم مضطجعاً على كثيبٍ مرتفعٍ في فلاةٍ قفرة الاديم تحت سماءٍ وضيئة الاثير رائقة النسيم محفوفاً بنسائهِ وبنيهِ واذا بنسمةٍ هبت عليهِ عند انتصاب عمود الصباح. منطويةً على نفحات زهور متنوعة الاطياب وحاملةً صراخات المواشي التي كانت تسبح رب الفلق. فارشدت لحظاتهُ الزائغة الى افقٍ شاسع يترعرع بجلبابٍ خضل الاخضرار ويترقرق تحت مساحب ذيول الغمام ومساقط انداء الفجر. فعندما بدا لديهِ ذلك المشهد الناضر وثب على قدميهِ في الحال وصاح بلفيف عيلتهِ المقرون وهو باسط يد الايماء قائلاً اما تنظرون ذلك الافق البعيد الذي يتبين لنا من خلال البزوغ كيف هو بهج المنظر وحسن المظهر. قوموا بنا لنذهب اليهِ ونجسسهُ علهُ يكون صالحاً لاقامتنا فنخلص من هذه

الاطلاع على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها الاَّ في اطلاق طيور التبصرات الدقيقة لتحوم باسطةً اجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التاريخ العام حيثما يشتبك شجر المواقع في مخدرات الاجيال الغابرة وتهوى غدران الوقائع من شواهق القدميَّة العالية

فلا ريب انهُ اذا تطلبنا معرفة اصل انتماء وانقياد العالم البشري بعضهِ الى بعض وكيفية انتشار السيادة والشريعة فيهِ انما يدعونا الامر الى التوغل في اودية التواريخ النسيجة . وهناك تبرز لدينا عروسة غابة الحقائق من خباء الازمنة السالفة متقدمةً لنا بين اناملها زهرة المراد . فنعلم حينئذٍ ان الانسان لم يَسُدْ في اوَّل امرهِ الاَّ على عيلتهِ ومتعلقاتها فقط ثم آلت بهِ حركات الظروف الى ان يسود ويسطو على قبيلةٍ ثم افضت بهِ تلك السيادة والسطوة الى التسلط على شعوبٍ مختلفةٍ وقبائل متنوعة حيثما نودي بهِ يعيش الملك

فهات بنا لنهبط باقدام الاستقراء في اعماق القدميَّة الغامضة حيثما قد ابتدأت تلك الحركات واخذت بالصعود الى قمة التمام الاقصى حتى اذا ما بلغنا سدرة التتبع مخترقين فلوات الادهار المتراكمة نجد انفسنا منتصبين على عرفات البداية اذ نشاهد الانسان القديم يهرع الينا شاهراً حسام السيادة هكذا . انهُ لما كان النوع البشري تائهاً في البراري وثقوب الارض لايجد لهُ مقرّاً في بطون الاودية التي كانت تهددهُ بانقضاض قمم الجبال الشامخة عليهِ ولاراحة

الفصل الرابع

السياسة والمملكة

كما ان نظام هذه الكرة الارضية لايمكن قيامهُ بمجرد حركتها اليوميَّة على نفسها فقط بل يحتاج الى الحركة الشمسية حول فلكها ايضاً . هكذا الانسان بما انهُ محمول على ظهر تلك الكرة وآخذ جميع موادهِ ومقوّماتهِ منها فهو تابع لجميع اطوارهِ لاحوالها. فلا يمكنهُ القيام بمجرد اقتصارهِ على ذاتهِ فقط وذلك لعدم مقدرتهِ على حفظ نظام حياتهِ الشخصيةً بل يحتاج الى الدوران حول مركز المجموع الانساني . وكما ان القوَّة الجاذبة التي تتبادلها جميع الاجرام السماوية لاتسمح بوقوع خللٍ في نظام الفلك العام هكذا يحتاج ذلك المجموع الانساني الى قوَّة تحفظهُ من الوقوع في الخلل والتبديد * واذا اخذنا نفتش على قوَّة مثل هذه فلا نراها سوى في السياسة والشريعة. على انهُ بذلك يوجد الانسان محافظًا على التئام شمل جمعيتهِ

اما ينبوع ظهور السياسة والسيادة والشرائع فهو جارٍ من تغلب الناس بعضهم على بعض منذ القديم وهو الامر الذي انتج التملك والملكات على وجه الارض * فلا سبيل لمن يرغب

كنا نسمعهُ كان باطلاً ولاحقيقة لهُ . واذا افترضنا عدم صحتهِ واشهرنا الحرب فلا نرجع الاَّ خائبين وربما نقع في خطر اضمحلال كل مملكتنا وسياستنا لان ما يساعدهُ الروح لا يغلبهُ الجسد

فاجابت الملكة بتواضع لاشك فيما تكلم الفيلسوف ولاريب ان الاعتماد السابق كان باطلاً لان السياسة العلوية منتصرة دائمًا على السفليَّة . وما يكون هابطًا من الاعالي يسطو مطلقًا على ما ينهض من الاسافل . وما تفعلهُ الصدف لا يغلب مفاعيل القصد

لعل سياستنا ودولتنا وجدتا على سبيل الصدفة والاتفاق

اذا تتبعنا شجرة امتداد السياسة والتملك في العالم من حيث الاصل انما نراها باسقةً من جرثومة المصادفات والتقادير

فالتفت الملك الى الفيلسوف وقال لهُ ماذا تقول انت

فاطرق الفيلسوف قليلاً ثم اجاب . لاشك فيما قالتهُ حضرة ملكة الحكمة

هات فصل لنا ذلك

ان تفصيل هذا الامر يعسر جدًا ولا يوجد نورٌ واضحٌ نستهدي بهِ الى الحقيقة . وانما يمكنني ان اورد على ذلك ما اتناولهُ من الاستقراء والاستنتاج التاريخي

لاباس خذ راحة الجلوس وقل ما يخطر لك

فامتثل الفيلسوف الامر وجلس و بعد اطراقٍ قليلٍ رفع راسهُ وجعل يقول

نيران الحروب يجب ان لا تنتصر واعلى ان تتركوا هذه المملكة وشانها
بل ينبغي ان تكون مملكتكم موجهة كل قوتها الى مساعدة مسراها
وانتشارها . على انهُ اذا كانت دولتكم قائمةً بالابدان فتلك ثابتةٌ
بالارواح . ومن المستحيل قيام البدن بدون الروح فمن الجهالة
تغافل ذاك عن هذه. واذا خامر افكاركم الميل الى محاربتها فلا يخطر
لكم امكان الانتصار عليها . بل يجب ان تعلموا انكم سترجعون القهقرى
ناكصين على اعقاب الندم لان يد القدرة ممتدّةٌ دائمًا الى مساعدتها
واغاثتها حتى لا يمكن لنفس ابواب سقر ان تقوى عليها . وطالما
اجتهدت ملوكٌ قبلكم بدثارها واسقاطها ولم ينجح لهم اجتهادٌ وبمقدار
ما كانت الاضطهادات ثائرةً عليها كانت هي تزداد قوّةً وامتدادًا
الى ان استغرقت في حضنها العالم واخضعت كل ملوك الارض تحت
موطئ قدميها . وما ذاك الا لكون العناية العلوية قد سلمتها زمام
السياسة ورافقتها في كل المسالك . ولن تزال هكذا تنمو وتكثر وتشحن
الارض الى ان تتم المشيئة

فبعد ان استوفى الملك كلام الفيلسوف ووجدهُ في غاية الصواب
ايقن ببطلان فكرهِ وخطا اعتمادهِ وعلم ان ما كان يبلغهُ البعض من
اهالي مملكتهِ ضد مملكة الروح هو ناشئ عن روح التغرّض
والتعرض. وهكذا عزم على تقديم الاعانة والاغاثة بدل المضاربة
والمحاربة . وبعد فترةٍ من الصمت التفت الى ملكة الحكمة وقال

ان جميع كلام هذا الرجل صوابٌ وليس فيهِ ادنى ارتياب وكل ما

المبين . ولولم يرتفع قوس نصرها في ساحة العالم وتخفق رايتها على كافة الاقطار لكان النوع البشري يقع في هاوية الفساد ويعم الخراب على جميعهِ سيما في هذه الاجيال الاخيرة حيثما انتبهت الطباع الخبيثة من غفلات السداجة لدى ارتفاع نهار التمدن الذي لا يوجد عندهُ لجم لرد جماح تلك الطباع سوى ما تعلمهُ مملكة الروح. فاذا رغبت عظمتكم في خرابها تكون هذه الرغبة واقعةً على نفس مملكتكم ايضاً . فلا تنقموا على ذواتكم . ثانياً اذا كانت تمد سلاسل سطوتها الى اعماق القلوب فلا يكون ذلك الا لايقاع التهديد والخوف على السرائر والضمائر الشريرة لا للاستيلاء عليها فلو لم تكشف هذه المملكة حجاب غفلات البشر عن المستقبل وتظهر لهم ما يكمن فيهِ من المخاوف المستعدة لابتلاعهم من كان يمكنهُ ردع النفير عن الغني . من كان يستطيع رد جماح المغتال . من كان يحسن تقييد رجل السارق . مَن كان يقدر على قمع ثوران الزاني. مَن كان يمكنهُ قطع لسان شاهد الزور . وبالاجمال مَن كان يمسك العالم البشري عن تمزيق بعضهِ البعض ويحفظ نظامهُ من الانتثار. ثالثاً ان الانسان لانطباعهِ على السوء ينسب جميع المعاصي والقبائح لمن ينهى عنها ويوبخ مرتكبيها . وبناءً على ذلك قد توهم البعض من الاشراركون جولان خدام مملكة الروح في الاقطار المسكونة هو لاجل غرس الخصومات والقلاقل بين الناس مع ان الامر بالعكس اي انهم يهتمون دائماً بنشر الاتفاق والسكينة في العالم ولو اضطرتهم الحال احياناً الى ترك السلم واشعال

فارشق الملك نظرهُ وقال. ان كثيرين من ذوي الصدق والثقة قد اخبروني عن جملة امور خشنة تواظبها مملكة الروح. فهي على ما يقولون انها لا تفتر عن بث التصورات الباطلة في عقول الناس لكي تنهض بذلك تصديقات سخيفة تؤَسس عليها اقيسة دعواها بالسياسة المطلقة. وعلى هذا الاساس قد شيدت قوس نصرها في ساحة العالم ونشرت عليهِ راية سلطانها. ثانياً لم يكفها التسلط المطلق على الانفس والاجساد حتى جعلت تمد سلاسل سطوتها الى اعماق القلوب ايضاً لكي تجتذب السرائر والضمائر الى ميدان احكامها وعبوديتها. ثالثاً لا تكل اعوانها وانصارها من الجولان في كافة المسكونة لاجل زرع الشقاق والفتن حتى ان اكثر الحروب التي جرت في الدنيا كانت مسببةً من اطوارهم على ما قيل. فهل يسوغ لنا الصمت عن هذه المملكة اذا كان هذا شانها

وبعد برهة من السكوت وثب الفيلسوف على قدميهِ واحنى راسهُ امام الملك وقال. اسمح لي ايها الملك ان اجاوب عظمتك بالتفصيل عما شرفت بهِ آذاني

قل ما تشاء

اولاً ان هذه المملكة ما علّمت قط ولن تعلّم الاَّ بما يقود الناس الى نوال السعادة الحقيقية كما يظهر لنا ذلك تدقيق الاستقصاء والفحص بدون التفات الى ما يهذر بهِ اهل الغرض الاعمى. وجميع تعليماتها ماخوذةٌ من الكتاب المعصوم الذي لا ينكرهُ الا اهل الضلال

على الاجار بينما كان الليل ناشراً شراع الهدو وعلى جميع حركات الطبيعة وضاغطاً بكل ثقلهِ على الهواء كيلا يخترقهُ صوتٌ اخرسوى تكتة المصابيح او تغريد البلابل

ولما اخذ السكوت قرارهُ طفق الملك يناجي الفيلسوف هكذا

انهُ يوجد مملكةٌ كبيرةٌ جداً وقويةٌ الى الغاية يقال لها مملكة الروح وهي ليست بعيدة عن تخومنا فهل تعرفها

نعم انهُ توجد هذه المملكة وانا اعرفها حق المعرفة فما سبب سوال العظمة عنها

لانني اريد شن الغارة عليها ايضاً

وما الداعي الى ذلك

هو سماعي عنها انها تتصرف كثيراً بما يضاد سياستنا وان ملكها الجالس على العرش القديم كثيراً ما يجتهد بخراب شرائعنا واضمحلال كل مملكة لاتخضع لنواميسهِ

فهز الفيلسوف راسهُ واجاب هكذا . لاتعطِ صغياً لكل محدّثٍ ايها الملك المعظم لان اكثر خراب العالم ينشأُ عن احاديث ذوي الغرض . وكثيراً ما يتكلم الناس بلغة من لاينتظر وحقيقة الامر هي بخلاف ما بلغ اذنيك لان العالم لم يدخل في دائرة التهذيب ولم تقم مملكتكم هذه الامنذ قيام تلك المملكة القديمة . واذا كان البعض من رعاياكم ينسبون اليها بعض اراجيف فهذا ناجم عن الصالح الخصوصي الذي من شانهِ ان يهدم بناء الصالح العام

الغابة جميعها انوارًا فاخذت تتموج بالاضواء الساطعة وصارت شعلةً واحدة حتى اظهرت مشهدًا عجيبًا لم اشاهد ابهج واسنى منهُ . فصار يظهر لي كان الارض اخذت تقذف السماء ليلاً بما طرحت عليها من شُهب الرمضاء نهارًا اوكان جميع عرائس الغاب جعلت ترشق علينا بروق نظراتها. وعدت حينئذٍ اخال نفسي كانني قائمٌ في وسط فلكٍ يتشعشع بالنجوم والكواكب التي لاعدد لها . وما زلت اتبع بانظاري هولاء الرجال الذين زرعتهم الهم في جميع اقطار الغابة لكي نذيعوا اثارهم ويبثوا انوارهم اللامعة حتى رايتهم يرجعون منضمين اجواقًا اجواقًا ويعسكرون وراء المحفل الملوكي مثنى وثلاث ورباع حيثما كان يحثهم الصوت العالي قائلاً اتموا الصفوف فاني اراكم خلف ظهري

واذ امعنت النظر في هذه الصفوف الملوكيَّة رايت على صدر كلٍّ منهم لوحًا مكتوبًا بهِ هذا جندي التمدن دام كاسرًا وما لبثتُ ان اخذت بمجامع خواسي جلالة هذا المشهد اللامع بالانوار والساطع بالبهجة والازدهار. حيثما كان الملك نازلاً في عرشهِ نزول الشمس في الحمل مغمورًا في اشعة الهيبة والوقار والملكة بازغةً من سماء مجدها بزوغ الزهرة من افق الصباح مكتسيةً بحلل الكمال وحلى الجمال والفيلسوف جالسًا قبالتهما جلوس الدعامة على اساسها موثق الاعين بسلاسل الافكار والهواجس وقائد جيش التمدن متخطرًا في محلهِ تخطر الاسد في عرينهِ واجواق الجنود مصطفةً حول المرسح كالزرازير

الفصل الثالث

مملكة الروح

واذ كان التمدن والحكمة يناقشان الفلسفة رأيت جمهورًا آتيًا من شاسع وما زال يجحل متقربًا تحت كراديس الاغصان حتى بزغ من افق الغاب وانتصب امام المشهد المهاب. وبينما كان يظهر لي ان الشمس مالت الى الطفل وعاد الغروب يطوي ذلك الشراع الذهبي الذي نشرتهُ ايدي الاصيل على هام الشجر لم اعد ارى حينئذٍ سوى اشباحٍ ضئيلةٍ تتخبح في الفسحة ولا عاد يمكن تمييزها لاندفاع تيار الظلام عليها بحيث اوشكت جميع الغابة ان تنمحي تحت اقدام الظلال او تغور في غمر الظلمات المتراكمة

وما كان الاَّ فترةٌ قصيرةٌ حتى رأيت نارًا لمعت عن بعد فجاةً وصارت تتقرب تاركةً خلفها مصابيح مضيئة . ولم تزل تتكاثر هذه النبارس ممتدةً الينا من وراء العرشين حتى ملأَت ميدان النظر. ولما خزقت الاضواءُ جلباب الظلام رأيت رجالاً كثيرة عليهم ابهة العسكرية بارزين كمن كمينٍ وهم يوقدون ما لا يحصى من تلك القناديل التي كانت معلقةً على الاغصان وما برحوا يتممون مسعاهم حتى ملأُوا

داخلاً في عبودية ضدها تبعاً لمقتضى الحال

ولكون الدخول في احكام دولة الخشونة والبربرية يفسد احوال البشر ويثر نظام جمعيتهم نازعاً عنهم كل الصفات الحميدة والسلوك السليم وذلك هو الامر الذي لايوجد اضر منهُ لمملكة التمدن والصلاح وجب علينا دفعاً لوقوع البلبال والوبال فيما بين رعايانا ان نثور على تلك الدولة الآبقة التي اذا لم نمحُ آثارها لم تقم حرية الانسان المطلوبة اصلاً وهي الحرية التي لايمكنك انكارها مهما رددت الهواجس والاوهام الفلسفية التي لاوجود لها الآ في العقل الذي قد يخطر فيهِ ما لاحقيقة لهُ في الظاهر

فاردف الفيلسوف كلامهُ قائلاً . انا لم امنع امكان الحرية الادبية بل الطبيعية. ولا شك انا اذا اطلقنا انظارنا الى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة نعاين اقواماً احراراً وآخرين عبيداً حسبما تقتضي احوالهم وكيفياتهم. وعلى كل حال ان الاجتهاد في عتق العبيد وهدم مباني العبودية هو امر ضروري وواجب

فطرح الملك انظارهُ على الفيلسوف وقال

اذن مشروعنا في محاربة مملكة العبودية واستنقاذ شعوبنا من قيودها لايستحق الملام

كلاَّ . بل هو حسن وواجب يا ايها الملك المعظم لان الاستعباد مكروه عقلاً وطبعاً وقد نهض العالم باسرهِ ضد هذه العادة المستهجنة وما سواها فحاربوا من ظلم واعتدى واعدوا لهُ سلاسلاً واغلالاً

فهي مفيدة ايضاً بعبودية بعضها للبعض . ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة او مضرة لصالح الامور فالاجتهاد بابطالها ضرب من اللزوم وقانون صوابي. وبناءً على ذلك عندما نظرنا دولة الاستعباد تتداخل ما بين شعوبنا تحت طرق مختلفة حيثما لاينجم عن هذا التداخل سوى الاضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة نهضنا حالاً ضدها وسطونا عليها سطوة اسكندر على داريوس وسحناهم كما علمت

اما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقةً من كل حاكمٍ وصافيةً من كل مكدّرٍ فهو امرٌ لايمكنهُ البتة ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي تصعب في الاجراء بمقدار سهولتها في التصور حسب كل الاعمال الفلسفية. لان التطبع لاينقلب طبعاً وما كان هكذا فهو غير لذيذ عند الطبيعة وبعيد عن السهولة واذا امكن الانسان السلوك كما اشرت فلا يكون ذلك الاَّ لمن وسمتهُ العناية بسمة الانفراد وهذا شاذ وليس حكم الشاذ الاَّ الحفظ وعدم القياس عليهِ

وعلى كل حال ان الانسان اذا كان متعبداً لاحكام دولة التمدن والصلاح يكون داخلاً في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الانسانية على انهُ اذا كان ذلك التعبد لازماً فتلك الحرية ملزومة لان اعتناق الانسان واجباتهُ لايدعى عبودية ولكن اذا كان الشخص معتوقاً من رق تلك الدولة فهو يكون بالضرورة

ان الكهرباء هي السبب الوحيد لجمع وتحريك كل العناصر بما انها روح العالم . ثم لا نرضى . فنقول ان سيال الحرارة هو عنصر جميع الحركات والمتحركات وعليهِ مدار سببية الحياة والتقنم. ثم لانرضى . فنقول ان النور ذاتهُ هو القائم باحياء وتحريك كل مادةّ مؤلفة او بسيطة. ثم لانرضى. فنقول ان شريعة التثاقل التي تثبت اقدام الاكوان في مراكزها واوضاعها وترشد جميع خطواتها الى سواء السبيل هي هي ذاتها سبب القيام العام ومبدأ الحركة. ثم لانرضى. فنقول ان الفضاء الغير المتناهي هو ينبوع البداية والنهاية ومنهُ اخذت كل الاصول العالمية واليهِ سترجع . ثم لانرضى . فنقول انهُ يوجد ربٌّ متنزهٌ عن ادراك الافهام ذو عناية دائمًا بتدبير عموم تلك المخلوقات ومنهُ الحياة كانت وكلٌّ بهِ كان وبغيرهِ لم يكن شيءٌ مما كوّن . وهو محرك الحركات واصل الكائنات واليهِ مصير الاشياء جميعها . لااله الاّ هو ولا معبود سواهُ . فحالاً نرضى بهذا المقال ونسحب جميع افكارنا من مواقع الاوهام والوساوس الغريبة معانقين عروسة الحقائق وبكر كل برية متمتعين بلذة الحياة وحرية المعيشة

وبينما كان الفيلسوف مواصلاً خطابهُ كان الملك والملكة شاخصين فيهِ باعين يخامرها الزكاء والاصغاء مستوعبين معانيهِ بكل اتضاعٍ ودعة .وغب نهاية مقالتهُ جعلت الملكة تقول لهُ هكذا

اننا قد عرفنا عدم امكان وجود حريةٍ للانسان بل ولا لسائر الانواع .وان جميع الاشياء لكونها مرتبطة بخدمة بعضها البعض

المرتعدة وحروبها المتقدة . وتهب مع الرياح الاربع الى حيث لا يعرف الى اين ذهابها ولا من اين ايابها . وتقف حائرةً عند نهوض الزوابع وانتشاب الانواء وتراكض البروق وانقضاض الصواعق وهدير الرعود حيثما لا يدرك الباحث من الاسباب سوى ما يظن بهِ ولا يعلم من الحقائق سوى ما يراهُ ماديًّا. فيغرق في بحور الاندهاش والذهول ملتطمًا بامواج الهذيان والبحران[1] ماخوذًا بخمرة الهواجس والاوهام الى ان يصبح كريشةٍ تتجاذبها رياح الاحكام المضطربة . وياخذ في تصوير الغيوم الى اشكالٍ وصورٍ تتجدد على مر الدقائق والاوقات خالعةً كل هيئةٍ حقيقية

هناك نجس بهذه المواد الكونيةَّ من اسمى جرمٍ الى ادنى ذرَّةٍ باحثين عن اصولها وفروعها وعلاقاتها ونسب بعضها الى بعض وغاياتها واحكامها ناظرين في كلٍ من اجناسها حركة حياةٍ متوزعةً على سائر انواعهِ تحت ناموس المناسبة . فالبعض يجمد متصلبًا . والبعض يسيل مائعًا . والبعض ينتشر طائرًا . وهذا ينمو بلا حياة ولا انتقال . وذا يتمتع بالنمو والحياة ولا يتحرك وذاك يفاخرها باسلوب نموهِ وحيانهِ وحركتهِ المطلقة والارادية

* هناك نتصفح هذه الاشياء وتلك الحوادث فنقول . ان كلاًّ منها لهُ حياةٌ خصوصية تقوم بتدبير وظائفهِ وحركاتهِ الذاتية وحياةٌ عمومية تشركهُ مع بقية الاشياء وتربطهُ بعللها . ثم لا نرضى . فنقول

---

١ قولهُ البحران الدرجة القصوى من المرض

بلقاها وتخطراتها . فالجبال تتمنطق بمناطق لجينيَّة وترفع قممها الغاطسة في غمرات الظلام فاتحةً باعاتها لاعتناق طفحات الضوء. والمياه تتموَّج بلمعان الاشعة المنبعثة من لدن ابي الانوار كانها متسربلة بدروع ناريةٍ . والاشجار تمرجح رؤُوسها لدى بشائر النسيم كذي طربٍ متموّجةً باكاليلها العسجدية ذات المنظر البديع . والازهار تبتسم ازاء وجهِ الطبيعة نافحة باطيابها التي تذهب مبشرةً سائر الخلائق بثوران حركة الحياة . والاطيار تغرد وتصيح مهللةً ومكبرةً على ادواحها العديدة ومنازلها المتفرقة وسائر الحيوانات تاخذ بالحركة والانتعاش

هناك نشاهد هذه الغزالة[١] مائلة على خط الزوال بوجهٍ يقدح شرراً حتى اذا ما بلغت الطفل[٢] واوشكت الفراق صبغت بدموعها الدموية وجنات المغرب وغارت في كهف الافق . سادلةً على المسكونة ستار الظلام تاركة العالم في حالة سكوت الموت منهضةً الخمود العميق في جميع البنية الآليّة . سالبةً من جميع المواد المظلمة ما افاضتهُ عليها من الصور الجليّة حينما تتبلبل الارض مع السماء وتضيع الجبال في الاودية ولا يعود يقال سوى ما هذا السكوت العظيم

هناك تحوم عقولنا على كل حادثةٍ طبيعية وظاهرة ادبيَّة فنترقب طيور السماء متبصرةً باجتماعاتها وانفراداتها واختلاف اصواتها وحركاتها . ونتبع مسير وحوش الغاب متاملةً في فرائسها

١ قولهُ الغزالة اسم من اسماء الشمس ٢ قولهُ الطفل بالتحريك الغروب

بصرهِ وبصيرتهِ كالتهافت على اللذات الجسدية والتمرُّغ في اوحال التهافت والفساد. ناظرًا في كل لحظةٍ الى الموت الذى يتهددهُ على ممر اللحظات. عالمًا ان كل نفخةٍ من نفسهِ ماخوذةٌ من روحهِ. عارفًا ان القوة الضابطة لاقدامهِ على سطح الارض ستكون يومًا ما سببًا لابتلاعهِ الى عمقها

فبهذا جميعهِ قد يحصل الانسان على لذة قصوى في مسير حياتهِ اذ يشاهد ذاتهُ محلولاً من جميع وثاقات الاكدار والآلام الادبيَّة والطبيعيَّة ومنقطعًا عن كل عالم العبوديات اللازمة والمتعدية

واذا تحركت بهِ الاميال الى مخالطة اشباههِ بالنوعيَّة . فعليهِ باختيار من حسن وطاب واجتناب من قبح وخبث . على انهُ بذاك تنفسد الفطرة السليمة التي هي اصليَّةٌ في الانسان . وبهذا تصلح وتجود وتسمو الى اوج الكمال

واذا اتفق وجودهُ في مركزٍ بعيدٍ عن دائرة المخالطة الحسنة . فعليهِ بالانفراد بذاتهِ ومخالطة العوالم المحيطة بحواسهِ حيثما ينال لذاتٍ لا مزيد عليها ويغتني بها عما سواها

فان الانسان المثقف لا يدرك لذةً اعظم اعتبارًا من تلك الملذات التي يدركها عندما ينشر شراع التعقل لسفينة افكارهِ ويطلقها في بحور هذه الموجودات لدى مهبّ ارياح الحوادث

هناك نرى غزالة العالم تبرز يومئذٍ من كناس المشارق الذهبية ناشرةً انوار بهجتها على وجهِ السماء حيثما تعود كافة الخليقة مستبشرةً

فاذا عرف هذا جميعهُ يعود متحرراً من سلطان الوقائع ومعتوقًا من عبودية الزمان . فلا يلبث معرضًا للاكدار والاحزان لعدم ميلانهِ اليها . ولا يوجد هائمًا بالمسرات والملذات لكونهِ لا يعتبرها بحيث يرى الجميع بخارًا يتصاعد قليلاً ثم يضمحل . ومن لا يبالي بالالم لا يشعر بمضضهِ . ومن لا يعبا باللذة لا يدرك بهجتها

اذا كان وقع السيف ليس يمضني
فعندي سواءٌ غمدهُ وغرارهُ
وان كان جمرُ الخطب ليسَ يصيبني
فلا خوف لي مهما يهبُّ شرارهُ
انا لا ارى في الارض شيئًا يروقني
لذلك نور العمر عندي نارهُ
ايطربني هذا الزمان وكلهُ
عراكٌ على الدنيا يثورُ غبارهُ

اما حصول الانسان على لذة الحيوة فلا يقوم الا اذا طرح ثقل العالم عن ظهرهِ وارتضى بما قسم لهُ من الله لقيام وجودهِ خالعًا كل امارة تجعلهُ عبدًا واسيرًا لمن يتعالى عليهِ وذلك كالحسد والطمع والكبرياء والحقد وهلمَّ جرًّا . موجهًا اقدامهُ على هذه الارض حسبما يهديهِ الصواب والاختبار . منعزلاً عن الناس ما امكن . واضعًا لافكارهِ ناموسًا يحفظها في قيود الاستقامة والرشد . لاجمًا لسانهُ عن كثرة الكلام لئلا يحسب تكلمهُ هذيانًا . راكضًا وراء الحكمة والعلم . معرضًا عما يؤُول الى خراب

وايادي تتجالد وتتقارع ومخالب تخلب وتجرح واظافر تنشب وتهشم وحوافر ترفس وتصدع. واجنحةٌ تخنق وتلطم. وذنابات وافواهٌا تلدغ وتلسع. وكذلك نرى مملكة الحياة النباتية مشتغلةً بدفاع غارات[1] الطقوس بوسائط وطرق لا ينجلي غموضها ولا يحصى عددها وهي تضج وتئن ليلاً ونهاراً مما تفعلهُ بها لطمات الارياح الهائجة التي تخطف ورقها وتنثر ثمرها. ونرى ايضاً عالم السوائل يقاسي تبديد التخبير تحت احكام الحرارة فيهب الى العلا وينضم هناك الى بعضهِ على اشكال متخالفة. ثم يهبط غائراً في بطون الجوامد فيصادمها وتدافعهُ ثم تقذفهُ لى حيث يذهب آناً مضطرباً منذعراً مما قاسى. فكيف لا يمكن اوالحالة هذه ان يقال لا حرية في الخليقة ولا خلاص من العبودية *

ومع ذلك فقد يمكن للانسان ان يحصل على شبهِ الحرية ويتمتع بلذة الحياة على نوع ما. اما حصولهُ على الحرية فلا يمكن الا اذا ادرك ان سني وجوده مهما كانت عديدة بالنسبة الى ماسبقهُ من العدم وما سيرد عليهِ ليست الا كبرق طفيف لمع في ليلٍ دامس. وان جميع مصائب الدنيا واكدارها تحيط بهذه الفترة الحقيرة من الحياة التي يجب ان يستثني منها اوقات نومهِ وطفوليتهِ وشيخوختهِ وهي الاوقات التي تعتبر عدماً. وان جميع المحيطات بهِ تجتهد في هدم بنيتهِ لتسترد منهُ ماسرقهُ من موادها بالاغتصاب. ولا تغفر السرقة الا بالرد الذي هو حكم المغتصب

---

١ قولهُ غارات الطقوس حالة الجو من حرارة وبرودة

النباتي. اما ترى كيف تجمع القوات الجاذبة ما بين المتفرقات العنصرية وتخضعها لسلطان الاجتماع والتراكم تحت عبودية الفواعل الكيماوية واسر قوات التماسك بحيث لو امكن للعناصر الهيوليَّة ان تاخذ حرية الانفراد لما امكن قيام النظام الطبيعي اصلاً . اما ترى كيف تدخل السيارة في سلطة التوابت . قم بنا لنطير في اجنحة التصوّرات ونرتفع بخار الافكار الى سماء الحقيقة. وهناك اريك كيف ان هذه الكرة الارضية تظهر لنا عن بعدٍ سابحة في اعماق الفضاء وهي تدور منحنيةً على نفسها كشيخٍ احنت ظهرهُ اثقال السنين . وكيف ان هذا الجرم العظيم منقادٌ بسلاسل سرية الى الخضوع لنظام الفلك الشمسي بحيث لا يمكن لهُ الخروج عن حدود دائرتهِ المضبوطة باقطارٍ من تشعشع جاذبية ذلك المركز الثابت . وكيف ان جميع الاجسام المنتشرة على سطحهِ خاضعةً لحكم تقلب الفصول والاوقات حسبما يقتضي حلولهُ في احدى جهات تلك الدائرة المنطقية وكيف ان كل تلك الاجسام نراها ثائرةً على بعضها لتدفع عبودية التغلبات حتى نشاهد بينها معامع مهولة. فهناك تسمع ضوضاء حروب الجوّ تضج ضد غلبة المؤثرات وترعد في آذان الارض التي نراها تقذف السماء بلهيب غضبها. وعجيج عالم المتحركات يصدع رووس الجبال العالية اذ تشاهد كلاًّ من انواعهِ يشن الغارة الشعواء على ضدهِ حتى يهلك الجنس ويباد . فترى اسلحةً تتلامع في الشمس وتقعقع في الهواء وجيوشاً تتضارب على صهوات الخيول تاركةً سحب غبارها تغشي وجه السماء

اشارةً لطردهِ من حلاوة الحياة القاصرة الى الدخول في مرارة الحياة المستقلة. وحينئذٍ يميل بوجههِ الى مواجهة عالم الغلبات فتدفعهُ شرائع الاستقلال الحيوي في عبودية الموجودات وتعصف بهِ زوابع الاقدار في مفازة الطبيعة فيعود مدافعاً ومحاذباً جميع الكائنات املاً في الخلاص من فواعلها وتاثيراتها الطارئة عليهِ فيخضع للحرارة ليستعين بها على الفرار من سلطة البرد. ويميل الى هذا الاخير ليدفع عنهُ غلبة تلك الاولى. ويبسط يديهِ لدى مكارم المملكة الآلية[1] علناً ليسترجع منها ما اقتنصتهُ من بنيتهِ بالانحلال او التنفس خفيةً. ويبتني من الجوامد بيوتاً لتحميهِ من حوادث الجوّ وهجير الشمس. ويستنجد المعادن لوقاية ابنيتهِ من غوائل الصواعق المنقضة. ويستخدم اجنحة البخار ليطير بها الى كل فسحات الارض. وهكذا لا تبرح طيور افكارهِ تحوم على دوحة الطبيعة . واقدام آمالهِ تعدو في ميادين العالم حتى تنتصر اخيراً على جميع قوانهِ كل تلك الاكوان وتزجهُ في اودية العدم حيثما تحيط بهِ ظلمات الفناء وتكتنفهُ غمرات السكوت بعد حياةٍ قد تقضت بالتعبد لكافة الحادثات وجرت تحت رق المصائب والاتعاب والامراض خاضعةً لقويٍّ مقتدر او ضعيفٍ مستتر حسبما تقتضي الغاية او الضرورة فلا حرية اذن للانسان. وهكذا تجري على هذا المجرى سائر الموجودات . اما ترى الحيوان القوي كيف يستعبد الضعيف. اما ترى ان كل الحيوانات كيف تسترقّ لخدمتها جميع جماهير الوجود

---

١ قولهُ الالية اي عالم الحيوانات والنباتات

الجمود حتى صار لبواشق الافكار فريسة

فشرعت الملكة تتامل في هذه الظواهر مندهشةً كانها ترى مشهدًا عجيبًا. واخذ الملك يفاوض العدل والحلم وما كان الا كلمح البصر حتى نبر الفيلسوف من هواجسهِ وقال

لم افهم معنى الخلاص من دولة العبودية وهل يمكن ان يوجد لاحدٍ خلاصٌ منها

اجابت الملكة. كيف لا يمكن ذلك . وهل يخفاك فعل المدافع والبنادق

انني لا ارى وسيلةً يمكن بها الخلاص لاحدٍ من لزوم التعبد . على انني ارى جميع الطبيعة مربوطة بسلسلة الاستعباد بعضها لبعض

اجاب الملك وكيف ذلك وهلا يوجد حريةٌ في العالم

لا * ولا يوجد طريقة بها يحصل الانسان على شبهِ الحرية لكي ينال لذةً

نعم يوجد* اوضح لنا ذلك

فاطرق الفيلسوف برهة . ثم اخذ يتكلم هكذا

اننا اذا تتبعنا الانسان منذ ولادتهِ الى نهاية امرهِ . انما نرى حياتهُ تجري خاضعةً الى ما لا ينتهي من العبوديات . وهكذا نرى في جميع المخلوقات . فالطفل المولود عندما يسقط على الارض يصرخ وينتحب علامةً لاشعارهِ بوقوع سلطان المحيظات بهِ عليهِ . ولم يزل عبدًا طبيعيًا لامهِ ما دام يغتذي من لبنها الى ان تضع لهُ المرّ على الثدي

اجاب بدون عبءٍ نعم هكذا تم الامر . وقد انفذوا الينا عرض حال ٍينطوي على ترك التمرد والعصيان والوعد بعدم الرجوع الى زرع الخلل في نظام مملكتنا نادمين على ما اجترموهُ ضدنا . ومسترحمين منا ان نطلق سجنهم ونفك اسرهم

لاشك انهُ يجب اجابة استرحامهم . اجاب الفيلسوف رافعاً كتفيهِ ولا ينبغي معاملتهم بالقساوة حذراً من ملامة العموم

فقاطعهُ الملك بعد صغيٍ وامعان قائلاً . ان الامارات التي بها نهجوا سبل التوحش والعبودية في مملكة التمدن والحرية تستحق النهوض ضدهم بكل قساوةٍ لانهم اخذوا يسلبون حرية الناس ويزرعون بينهم الخصومات والخرافات فلولم تستدركني هذه السيدة بمشورة حكمية لكنت انفذت امراً بشنق ملكهم وسجن اعوانهِ وانصارهِ موَّبداً

هكذا تم الامر اجابت الملكة . اما المشورة التي تنازلت عظمة الملك بقبولها هي اننا نستحضر اولئك الائمة ونضع قوانين وشرائع جديدة يسلكون بموجبها . ونرفقهم بنظارٍ من طرفنا ونمزج عساكرهم بعساكرنا وبذلك نامن غوائلهم ونستولي على ولاياتهم بالتدريج بدون اثارة الحروب وشن الغارات فنخلص من فخاخ دولة العبودية

فاطرق الفيلسوف ساعةً ثم رفع عينيهِ الى السماء واخذ يتامل قليلاً . ثم ادار راسهُ يميناً ويساراً واحاط جميع الغابة بنظرهِ وهو يهمهم بكلامٍ مترادف . ثم اعاد الاطراف ثانيةً واسدلَ على عينيهِ براقع

تلوح حذاقة الافكار. فهو ذو جبهةٍ تشير برحابتها الى تمام العلم والعمل. ونظراتٍ اشدّ نفوذًا من نبال بني ثُعَل وكان لباسهُ جامعًا بين المهابة والاحتشام جمع الحرف بين الصحة والاشمام ذو قامةٍ لا تغربُ عن العامّة ورشاقةٍ تتوقد بها النامّه . اما سنهُ فلم يتجاوز آحاد الخمسين على ما كان يلوح لي ويستبين

فلما صادفتهُ لحظات الجالسين على مقام السلطنة . بثتهُ اشاير التحيّة مظهرةً دلائل الابتهاج بقدومهِ . ثم اومات اليهِ الملكة ان يجلس حذاها فتقرب وجلس مستريحًا على ركبتيهِ . فاوعزت اليهِ براحة الجلوس ففعل

وبعد فترةٍ من السكوت التفتت اليهِ هذه السيدة وقالت لهُ

هل عرفت كيفية نهاية الحرب

نعم قد بلغني ان النهاية كانت انتصارًا لكم والله يعطي النصر لمن يشاء

ولكن بعد موقعتين بحكيان العُوَيْرض بما تكلفناهُ من تعبٍ شاق لاراحة الأّ بعد تعب

ولا نعيم الأّ بعد شقا

وهل بلغك ان ملك العبودية واعوانهُ قد اسروا وطُرحوا في السجن تحت سطوتنا بعد ان ادرنا عليهم رحى المنايا وامطرنا على هامهم البلايا

لا . لم يبلغني امر الاسر

ثم قالت الملكة لقائد الجيش اكتب رقعةً الى الفيلسوف واستجلهُ بالحضور الى هنا . ففعل . فقالت لهُ ارسلها مع هذين العبدين . فدفع لهما الرقعة حالاً بعد ان اطلعها على محلتهِ في مدينة النور . فذهبا يدرعان الارض والقائد راح يتخطى في ناحيةٍ . واخذ المظهر الملوكي يضرب في اغوار التفكرات . وما عدتُ ارى سوى هيبة السكوت المتعمق ولا اسمع سوى هدير الماء المتدفق

الفصل الثاني

الهواجس

وبينما كنتُ اجولُ في مراسح الاوهام العقليَّة واطوف في مسارح الخيالات الفكرية . اذ استلمحتُ شبحًا يتقارب من بعدٍ وهو يخبُّ في بطن الغاب غائصًا في غمر الظلال المتكاثف . وما زال يعسف على قدم الاقدام حتى نفذ من تلك الغمرات المدلهمة وظهر في مرسح الاحلام ظهور القمر من كبد الغمام

وما برح يتردَّد قدومًا ويحذر هجومًا حتى رأيتهُ خرَّ لدى العرشين باسلوبٍ ما بهِ شينٌ . واذا هو رجلٌ احرز سمة الوقار وعلى وجههِ

الذي يعصي السلطان او الشريعة تكون نهايتهُ الدمار والدثار وانهُ لا يمكن قط لاي ملة كانت او امة قهر الصولجان الملوكي او مجاوزة قوانين السياسة وانهُ واجبٌ على كل انسانٍ ان يخضع خضوعًا مطلقًا لعظمة السلطان عالمًا ان الله قد جعلهُ على الارض قهرمان . وسلمهُ مقاليد الشريعة ذات الامان

فحينما اتم القارئُ تلاوة الدُرج طرحهُ على الارض مرتعدًا بثوران الحمية وصرخ "ياللمكيدة" فتناولهُ وزير محبة السلام وتلاهُ بفم الضمير ثانيةً بينما كانت الملكة مشرئبةً والبهتة شاملةً وجهها وصارخةً "يالحيرة" وبعد برهة صمتٍ تكفي تكرارًا لتلاوة السرية رفع الوزير عينيهِ بحياءٍ الى حضرة الملكة واضعًا الدرج جنبهُ برفقٍ واخذ يستميل بلحظاتهِ قلبها الى اجابة اولئك المسجونين ويحركها بظرافة تبسماتهِ الى الشفقة عليهم

فانعطفت هذه السيدة الى الجانب الملوكي ورمقتهُ باعينٍ رطبها الاشفاق وقالت لهُ بتبسمٍ يطفح بانوار الحنوّ

دعهم يحضروا الى المحاكمة عسى يفلحون

اخشى وقوع المكيدة

انا اكفل ذلك والحكمة تعرف طريقها

ليكن لك حسب قولكِ

فالتفتت الملكة الى الوزير وقالت لهُ قم فاذهب بذاتك واستحضر المسجونين الى هنا كي نحاكمهم . فنهض الموصى اليهِ للوقت وجاز مسرعًا

ورفعهُ منشوراً لدى العظمة الملوكيّة مطأْمن الظهر مخل العزائم

فالقت عليها الملكة لحة عين ثم امرت قائد الجيش بحركة الايماء ان يتناول الدُرج ويتلوهُ عليًا . فالتفت القائد واشار الى حامل هذا الدُرج بالدنو فدنا والقى بين يديهِ الكتاب ونكص. فتلاهُ ذاك بصوتٍ عالٍ واذامكتوبٌ بهِ هكذا

الى العظمة الملوكية

ان تقادير النحس والتعاسة قد حركتنا نحن معشر الاشقياء الى رفع الاسلحة اذاء وجهِ عظمتكم الملوكية بحيث لم نكترث بيدكم القويّة وساعدكم الرفيع . وهو الامر الذي جلب علينا من لدن ملوكانيتكم غضباً لا يخفى وسخطاً لا يُطفى . فسقتم علينا بجيوشكم الزاخرة وصيرتمونا كالهباء الذي تذريهِ الريح عن وجهِ الارض . فلبسنا اللعنة كالثوب . لانهُ لم نعلم لكثرة جهالتنا ان كل سلطة هي من الله . ولذلك قد منعنا رب الحكمة كل حركةٍ وابقانا لديكم كعمود لوط . حاملين على عاتقنا رجسة الخراب . مسوّدي الوجه مضطربين بين يدي الغضب الآتي

فاذا كان لم يزل يوجد في قلبكم نحونا ذرةُ رحمةٍ فاقبلوا من عبيدكم اعلان الندم على ما فات . واطلقونا من سجن الحماقة واسر الجهالة . ونحن نعدكم وعداً ثابتاً اننا نجري جميع وامركم وقوانينكم في كافة ولاياتنا الصغيرة . ولا نعود لوضع ادنى خلل في نظام مملكتكم ذات الانساع والعمار عالمين ان سيف السلطان طويل . وان

الحروب فهنا نرى ان السلامة قد انشات حربًا

وعند ما تسترجع هذه الحروب راحتنا السابقة وهدونا الاعتيادي منادية بكون سيف السلطان طويلاً نقول من ثمَّ ان صخرة الحرب قد افاضت مياه السلامة الدائمة التي بها يتمتع كل آتٍ بعدنا كما يتمتع بماء هذه الصخرة التي فجرتها العناية بعصا موسى الاعناق كل سارحٍ في برية الحرية او غابة الحق (واومى الى الصخرة التي يتدفق منها الماء واحاط بالايماء جميع الغابة) وبينما كان هذا الوزير يتكلم كانت الملكة الآخذة وضع الجلوس المحتشم متكئةً على ساعد العرش السامي ومزهرةً راحتها بوردة خدها الازهر. وعلى مباسمها نقرأُ الحلاوة آية الكوثر. وهي تهز رجلها اللطيفة اشارةً لاستيعاب الخطاب متوسمةً بوجهِ محبة السلام باعينٍ تفيض جمالاً وكمالاً على طلعةٍ تنفث في العقول سحرًا وتدبر على القلوب خمرًا. فهي ترمي فواد قانوس (الهة العشق) بنبال الفتور. وتاخذ قلب باكوس (اله السكر) بنشوة الخمور. مع انها تخلقُ في مينارفا (الهة الحكمة) مهابةً واحترامًا وتجري في روح المريخ (اله الحرب) بردًا وسلامًا

فما اتم الوزير كلامهُ الاَّ ورأَيت زنجيين مهرولين من بعدٍ الى ساحة هذا المرسح ولم تزل بطون الادغال تبتلعهما تارةً وتتقاياهما اخرى حتى ادركا اخيرًا هذا المحط وسجدا على الفور تجاه المشهد الملوكي مكشوفي الراس مُطرقي الاعين قد عبثت بانفاسهما غصص الرعشة والهلع. وعقب سجودهما ابرز احدهما من جيبهِ درجًا مطويًا

ولكن اذا اخذنا نتصفح الحروب وغوائلها انما نرى العكس تماماً * على انهُ بالحرب تتبدَّد الهيئة الاجتماعية وتضيق دائرة تقدّمها ونجاحها حيثما يرسل اليها مركز الجهل اقطار الخراب * بالحرب تمحل الارض وتضنّ بانتاجها وتتقهقر الفلاحة ويقل الحصاد * بالحرب تنهدم البلاد وتغور المتاجر في اودية الاضمحلال وتنقطع الشعوب عن مشاركة بعضهم بعضاً * بالحرب تضعف الممالك وتقل رجالاً ومالاً وبالجملة انهُ بالحرب تذل البلاد وتبيد القبائل ويصفر الخراب * ومع كل ذلك فقد تلد السلامة حروباً والحروب سلامة * بناءً على ان زيادة الراحة تنشئ اضراراً جمة لاتذهب الاَّ بواسطة التعب والرياضة * وايضاً زيادة التعب قد تسبب جملة اعراض رديئة لا يمكن اخضاعها الى الزوال الاَّ تحت سلطنة الراحة والسكون اما ترى حينما تمردت علينا مملكة العبودية واخذت تفسد في الارض بواسطة اعوانها وتعيث بسذاجة شعوبنا كيف نهضنا ضدَّها ابتداراً وأشهرنا أسلحة الحروب حذراً من ان يبتلعنا القعر وتطبق البئر علينا فاها * وهكذا اتممنا تشتيت شمل العدوّ وصحنا عليهِ بصافور الغلبة والظفر ضاربين بطبول الحرية التي نحن اولادها وحينئذٍ فانا الذي تدعونهُ وزير محبة السلام قد اخترقت بذاتي جماهير معسكر هذه الاعداء واقتحمت قلاعهم ناضياً سيف الهمة والمسعى حتى انزلت بهم النكال دفعاً لوقوع القلق والاضطراب في بلادنا ورفعاً لتسلط القبائل الاجنبية علينا الامر الذي يفعل الخراب اكثر مما تفعلهُ

العالم منذ يشوع اريحا الى تيطس اورشليم وما بعدهُ * فقاطعهُ الملك
قائلاً انهُ يوجد في طريق الانسان كثير من الموانع التي لايمكن
الحصول على رفعها الاَّ بسفك الدم وكذلك قد يصيب الانسان
كثير من الحوادث التي لايمكنهُ دفاعها الاَّ ببذل الروح وعلى كل
حال لايسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبهِ الدم
ولكن يايها الملك المعظم ليس بجيد للانسان ان يسرع حالاً الى
اهراق الدماء على نزر الاشياء وليس جميع الحوادث والاحوال
تساوي الدم الانساني الذي لايوجد اثمن منهُ ولا يجب مضارعة
اولئك الشعوب الذين يبادرون الى شنّ الغارات وفتك بعضهم
بعضاً على اقل ارب لايعتد بهِ او ادنى خرافة لايبت لها في رقعة
التمدن بحيث لايؤول صنيعهم هذا الى دمار ودثار اخصامهم فقط
بل والى انحطاط وخراب هيئتهم ايضاً اذ انَّ الرجل الظالم يرتد
وجعهُ على رأسهِ وعلى هامتهِ يهبط ظلمهُ فلا برهان اذن على سموّ عقل
الانسان وتروض اخلاقهِ ودعة سجيتهِ اعظم من محبتهِ للسلم ونفورهِ
عن الحروب والخصومات على انهُ بالسلامة تنمو الهيئة الاجتماعية
وتتسع دائرة تقدمها بالثروة والمعارف والآداب * بالسلامة تخصب
الحقول وتعطي الارض غلاتها وتجود الفلاحة ويكثر الحصاد *
بالسلامة تعمر البلاد والقرى وتتسع التجارة التي عليها يقوم مدار
الاشتراك مع كافة العالم * بالسلامة تتقوى الممالك وتعظم رجالاً
ومالاً * وبالاجمال انهُ بالسلامة يقوم شرف البلاد ومصالح العباد *

جارية حينما كنتم تشرفون معروضنا بتلاوتهِ لاننا بعد برهة قليلة من نهاية الكفاح الاوَّل اسرعنا الى اخبار عظمتكم وشرعنا في الاعتراك الاخير ونلنا النصر والظفر من حيث لا تعلمون * ومع ذلك كنا نقتصر على انجاز تلك الموقعة الاولى حسب المرغوب لو لم يدخل غش هولاء المردة على سلامة قلب وزير محبة السلام (واشار اليهِ) اما هذا الاخير فقد كان مطرقاً في الارض غير متحرك وكانهُ واقع في هواجس كثيرة فالتفت الملك اليهِ وقال لهُ

بالحقيقة ان سلامة قلبك قد صارت السبب الوحيد لانتشاب تلك الموقعة الثانية لانهُ لو كنت تعرض عن تصديق دعواهم بالتسليم عالمًا ان الحرب خدعة لكانت جيوشنا انهت الموقعة الاولى حسبما اقتضت الثانية وكنا اغتنينا عن ثقلة هذه الاخيرة ووفرنا رجالاً ومالاً

فاحنى الوزير راسهُ لدى الملك وقال انهُ لم يخطر بي البتة امكان هجوم هولاء البرابرة علينا مرة ثانية بعد ان شاهدوا ما شاهدوهُ من بسالة اجنادنا الاقوياء في الحروب وتيقنوا جيداً عجزهم وضعفهم بالنسبة الى ثباتنا وقوتنا فقد جرت الاقدار بما لم يخطر بالافكار ومع ذلك فليست اجابتي لطلبهم كانت مبنية على اقتناعي فقط بكونهم لا يجسرون على محاربتنا ثانيةً بل وعلى طمعي بحقن الدم ايضاً اذ قد خطر لي انهُ اذا لم نجب طلبتهم وواصلنا الحصار والمهاجمات فقد يمكن ان يجرى نهر من الدماء حسبما جرى ذلك في كثير من مواقع

حتى اوقعنا جميع عساكرهم وقوادهم في قبضتنا بعد حرب اقوم من ساق على قدم واشهر من نار على علم ولم نكتف بهذه الغلبة فقط بل دخلنا ايضاً الى معاقلهم السخيفة لكي نستخرج ما فيها من القوات وبينما كنا نتجسس ونبحث في تلك الحصون واحداً فواحداً وجدنا في احدها رجلاً هرماً قد نفضت اقدام الايام على هامتهِ غبار الشيب وهو مختبئ في احدى زوايا حجرة ناكس الراس مكفهر الوجه منحط العزائم والقوى ذارف الدموع منحني الظهر حتى يرى كانهُ صنم لايمكنهُ ادنى حراك فقبضنا عليهِ ايضاً واخرجناهُ الى الخارج وربطناهُ مع سبعة قوادهِ المذكورين ومن يحمل بيرقهُ بسلسلة حديدية ووضعناهم في سجن عندنا تحت الاسر وحالاً اخذت قلماً وقرطاساً وسطرت بهِ هاتين الواقعتين كواحدة على وجه الاختصار وارسلت الاسطر الى عظمتكم مع بريد مخصوص

اجاب الملك قد وصلتني رقعتكم مع البريد المذكور ولكني لم استوعب كل الحوادث حسب الواجب ولذلك رددت اليكم البريد لكي يدعوكم الى هنا وافهم الامر منكم مشافهة فمن هذه الرقعة التي ابرزتموها لي لم اعلم سوى موقعة واحدة وانكم موعودون من الاعداء بالتسليم وترك الاسلحة عند ما كان نظري يسبق ويرى من بعيد دخان وغبار معركة مهولة واذني كانت تسمع لغطاً يشبه دوي رعود من افق شاسع ولم البث ان اغرقتني لجة البلبال لانني لم اعلم النصر لمن يكون * نعم ان هذه المعركة التي هي الثانية ربما كانت

نظام فيلقنا الذي كان يحكي الثريا شملاً والجوزاء مسيراً وهكذا لم نزل هاجمين عليهم وهم ناكصون على اعقابهم حتى ظفرنا بالغلبة والانتصار وتركنا اكثرهم بين قتيل وجريح والبقية ادبروا وتحصنوا في معاقل الاراء السابق تصديقها

اما الواقعة الثانية فكان وقوعها على هذه الكيفية وهي ان اولئك الاعداء قد ارسلوا الينا رسولاً حاملاً من طرف ملكهم رقعة بها يعدنا انهم يتركون الاسلحة بشرط ان تنحي عنهم قليلاً عساكرنا فوعدهم سعادة رفيقي هذا (واشار الى وزير محبة السلام) ان يجرى شرطهم وكتب لهم بذلك رقعة ودفعها للرسول فاخذها وذهب وهكذا اتممنا الوعد ومذ شاهدوا تنحينا عن معاقلهم طمعوا بتغاضينا واخذوا يجمعون عساكر جديدة مجددي العزم واندفعوا علينا ثانية كالوحوش الضارية تحت ادارة سبعة قوّاد تسمى بالارواح الشريرة وكان حامل سنجقهم جندياً يقال لهُ الخيانة * فعندما رأينا تاهبهم القتال وهجومهم علينا اغتيالاً ومفاجاة تحت لواء الخيانة هرعنا حالاً الى اسلحتنا القاطعة وقابلناهم بامواج كتائبنا المنتصرة واخذنا نصادمهم مصادمة بني اسد لبني كلب وكنت انا وهذا الوزير نخترق صفوف اجوقهم شاهرين سيف الهمة والمسعى ونضرب يميناً وشمالاً بكل عزائمنا لكي نشد قلوب الجنود المنقضة عليهم كالنسور وكان دخاننا يبتلع دخانهم ورعود مدافعنا تخرس مدافعهم ولم نزل نجزر مدهم ونقل حدهم حتى استظهرنا عليهم ملياً واوضحنا تقهقرهم جلياً ولم نرجع عنهم

ملتهبة بضرام المواقع واحذيتهما متوشحة بما نسجهُ النقع والدماء سائلة على حدظباها ومضمخة ثيابهما العسكرية وكان مكتوبًا على خوذة احدهما هذا قائد جيش التمدن وعلى منكب الاخر هذا وزير محبة السلام

وعندما وقعت من الملك التفاتة اليهما حياهما بالاكرام وقال لهما هات اخبراني بما فعلتما شفاهًا فاخذ الاول يسرد الحوادث هكذا

ان نصرتنا الكاملة على الاعداء لم تحتمل اكثر من موقعتين اما الاولى فكان حدوثها على هذا الوجه وهو ان هولاء الاخصام عندما شاهدوا جيوش ادابنا المستظهرة مقبلة عليهم فرقًا فرقًا عدوا حالاً على قتالنا منظمين صفوف اجناد مقاومتهم واخذوا يدافعون هجومنا عليهم بنيران مدافع العناد بدون ادنى اكتراث بنا وكان حامل بيرقهم رجلاً يسمى بالبغض * فعندما لاحظنا تحتمهم هذه زمرنا حالاً ببوق النار الدائمة ورفعنا بيرق النزال فكنت ترى حينئذٍ جيوشنا تلك الغضنفرية غائصة في سحب دخان الغيرة متلامعة ببروق سحيق التعاليم على صهوات جياد المدارس التي كانت تحمحم طلبًا للهجوم وشوقًا للاقتحام ولم تزل قنابر براهيننا تنقض على صفوف الاعداء كالصواعق من افواه مدافع استظهاراتنا التي كانت ترعد تحت سماء حرب الحرية ولم تبرح بنادق الفاظنا تمطر عليهم رصاص العزيمة الى ان رأيت تلك الصفوف اخيرًا متفرقة كبنات نعش ومنهزمة امام

العصيان والتمرد ولكي يعلموا انك انت هو الملك الاكبر مقداراً والاشد عزيمة والاوسع مملكة واجناداً وانهُ باي وقت تشاء يمكنك شن الغارة عليهم واسرهم وسجنهم حسبما فعلت الآن

قد ظهر لي الآن من كلامكِ يا ايتها الملكة السعيدة انهُ يجب ارجاع هولاء الظلمة الى مملكتهم بعد تلك الحروب التي اثرناها عليهم وكل ذلك التعب فانا اتعجب منكِ كيف مع كونكِ بهذا المقدار حكيمة تشيرين عليَّ بهكذا مشورة ولا تشورين باستئصالهم عن اخرهم لكي نامن غوائلهم ومكايدهم * فقاطعتهُ الملكة قائلة ان اشارتي اليك يا ايها الملك الجليل بوضع شرائع جديدة على اولئك القوم اصحاب تلك المملكة المشؤمة وبارفاقهم بمناظرين عليهم من طرفنا ويجعل اكثر عساكرهم من جنس عساكرنا انما هو عين استئصالهم وابادتهم لانهُ بذلك يمكننا وضع الايدي على مملكتهم وضمها الى مملكتنا بكل سهولة وبدون ادنى انزعاج لداخليتنا ولكن مع طول الزمان والصبر الامر الذي بهِ قد نجحت اكثر ممالك العالم حسبما تخبرنا التواريخ ولكن اذا اوقعت بهم الان حدّ السيف بدون التبصر بعواقب العجلة فاخشى عليك من الوقوع في بلبلة البال والندم على المحال * وبينما كانت هذه الملكة الحكيمة تبسط افكارها لذلك الملك الجليل واذا برجلين مقبلين من جوف الغابة باقدام مهرولة وبوجوه عليها سيماء الانشغال ولم يزالا يتقربان الى ان وصلا امام المظهر الملوكي وسجدا هنالك بكل احترام ووقار وكانا متدرعين باسلحة الحرب واعينهما

كيف يمكنني ان اعامل هؤُلاءِ القوم بما نقتضيهِ نواميسنا حسبما
تشورين مع انني قد افرغت جهدًا طويلاً وتكلفت تعبًا ليس بيسير
حتى اوقعتهم اخيرًا في قبضتي أَفما يخشى من هربهم بواسطة الحيل
والخدع الى حيث لا نعود نظفر بهم ثانية فها انا قد اعتمدت على
شنق هذا الملك الخبيث وسجن جميع حندتهِ وعبيدهِ مؤَبدًا تدبيرمملكة
العبودية بكل سرعة ولم يعد لي حاجة لما كانت تدفعهُ هذه الدولة
من الخراج لان جميعهُ آتٍ من مال الظلم * اياك تصنع هكذا يا ايها
الملك المعظم لئلا نفتح سبيل التمرد والعصيان الى شعوب مملكتنا
وتعود الثورات الاهلية قائمة لانهُ معلوم لديك كم وكم من الناس
يميلون طبعًا الى تلك الدولة ما عدا الذين قد مالوا اليها بقوة الفساد
والغش فاذا لاسمح الله اخذت الحروب الاهلية بالانتشاب نعدم
راحتنا ونقع في وجل عظيم فتصير المصيبة الاخيرة شرًّا من الاولى
اذ نكون كالطبيب الذي يسرع الى سفك الدم حالاً في الحميَّات
الخبيثة بدون ملاحظة المزاج والبنية فيهلك المريض بشدة انحطاط
القوى الحيوية * فاشور عليك اذًا يا ايها الملك المهاب وارجوك ان
تتنازل الى قبول مشورتي بان تستحضر لديك ذلك الملك العنيد
مع اهمّ اعوانهِ وتضع عليهم شرائع وقوانين جديدة يسلكون بموجبها
وتشدّد ذلك الوضع بالصرامة اللازمة بعد توبيخهم وتبكيتهم ثم تجعل
لكل منهم مناظرًا من طرفك وكذلك يجب ان تكون اكثر عساكرهم
من جنس عساكرنا كيلا يعود لهم مقدرة على مخالفة الناموس او

ذلك الجمال البديع مضطربًا بوقوع تاثيراتهِ على قلبي الذي كنت
اضغطهُ بيدي خوفًا لئلا يطير شعاعًا اذ لاح لي سطر من احرف
نارية على اكليلها الذهبي يعلن هكذا تحيى ملكة الحكمة واذ شرعت
اتامل بعد تلاوة تلك الاحرف في ابهة هذه الملكة المتواضعة رأيت
جبينها زاهرًا بانوار النباهة والذكاء واعينها متقدة باشعة التعقل
والفطنة واصداغها متنفخة بالحزم والرشد وهي تبتسم بالبشاشة والوقار
ملتفتة الى ذلك الملك الغضبان التفاتًا يرسم شكل القمر في الليلة
الاحدى عشر ومنحنية امامهُ بايدٍ منبسطة تستميل خاطرهُ وتستعطف
قلبهُ بكلام يقع في السمع وقوع الدر في الصدف فسمعتها تقول لهُ
هكذا ✲ نعم يجب التغاضي عن هذا الملك الظالم الذي لايبرح
مجتهدًا في زرع زوان الخشونة والتوحش في حقل مملكتنا ذات التمدن
والتهذيب ولاينبغي الاضراب عن استئصال كل اعوانهِ وانصارهِ
الذين يلبسون جلود الحملان وينشرون ما بين خراف رعايانا كلما
غفلَتْ عنهم اعين التيقظ والانتباه واضعين على وجوههم براقع المكر
والخديعة حتى اذا ما تمكنوا من استعطافهم بقوة الاحتيال ياخذون
حينئذٍ بافساد ضمائرهم السليمة مظهرين لهم شرف التعبد لملكهم وما بهِ
من الفوائد والمنافع الى ان يطرحوهم اخيرًا بايدي ذئاب عبوديتهِ
ولكن مع ذلك لا ينبغي معاملة ذلك الملك العنيد واولئك الاعوان
المردة الابما يقتضيهِ قانون شريعتنا العادلة اي بالاناءة والحلم
والتدقيق حذرًا لئلا نحسب من الاجانب ظُلاَّمًا او حمقى

دخان وقتام

واما الشخص الثاني فكان امرأة وعلى ما بان لي انها زوجة الاول وهذه المرأة قد كانت ذات وجه بيضيّ الشكل يلوح عليهِ حسن بلغ اعلى درجة من سلم الجمال باعين تتلامع بانوار الحور على سواد الكحل واجفن كانها سكرى بخمرة الفتور وماخوذة بسحر الغزل وحواجب كانها صوّرت بقلم رافائيل او نقشت بازميل ميخائيل قد جمعت بين الاقتران والزجج جمع جبينها بين السعة والبلج وراسها متوّج بشعر مسترسل يترامى على اقدامها كطالب شفاعة بهيئة تكلّ عن احاطة تشخيصها الصناعة وسواد يتموّج بسنا الصقال اللامع كالليل الذي يخامرهُ ضياء الفجر الساطع وهو مزنر باكليل من الذهب والغار علامة للظفر والانتصار وكانَّ وجنتيها صفحتا لجين قد اندفع اليهما نور الشفق وكانَّ جيدها ومباسمها كشقيق اخذ ينفتح اذا ما الصبح انفلق وكانَّ جيدها صيغ من بلور لطيف يعلو على صدر يحمل كرتي مرمر نظيف اما معاصمها فقد كانت لدوائر الاساور مراكز ترسل اقطاراً متساوية الاتصال وكذلك ارساغ اقدامها كانت تملأ الخلخال اما لباسها فقد كان جامعاً لكل الاحتشام بحيث لم يكن سوى جلباب عريض حريري النسيج يحيط بجميع قوامها من العنق الى الاقدام مزروراً على صدرها ومستدقاً عند معاطفها المحاطة بهِ كنطاق ومن هناك ياخذ بالاتساع الى الاسفل بدون ان يبدي مشهد قبة عظيمة * وبينما كنت انظر اليها نظر المندهش الحيران ماخوذاً بخمرة

تلك الفسحة المحاطة بذلك الشجر المائل وقوع قبة من زجاج على عمد وقناطر من زبرجد واذ اطلقت نظري قليلاً وجدت صخرة منفردة القيام مائلة على ناحية يتدفق من اسفلها غدير عظيم تدفقاً يسابق الطير سرعة وهو يتشعب الى جوار تذهب متشتتة في اقطار ذلك الحرش تاركة عند انفصالها صياحًا وانينًا موجعين وبينما كنت شاخصاً في هذا المشهد البهيج ومتاملاً بما تصنعهُ الطبيعة من الفلتات الغريبة واذا بعاصف من الريح قد نهض من سكناتهِ وهب هبوبًا كاد ان يقتلع جميع الغابة ويطيربها الى اعالي الجبال الشامخة نفضت نواظري اذ ذاك لدى تلك الزوبعة الطائرة خوفًا من لذع غبارها الثائر ولما فتحت اجفاني رايت عرشين منتصبين امامي على الفور كانهما مصاغان من الذهب الابريز وهما مرصعان بالفخر الاحجار الكريمة ووضعهما كان قريبًا من تلك الصخرة وذلك الغدير وفي كل منهما لمحتُ شخصًا جالسًا وعليهِ من اللياقة والكمال ما لم تسمع بهِ اذن ولم يخطر على قلب بشر * اما الشخص الاول فكان رجلاً مكتسياً حلة ارجوانية تتلامع كانوار الضحى وفي يدهِ اليمنى صولجان طويل وقابض باليسرى على رقعة مطوية بغير نظام وهو معتقل سيفًا ذا شفرتين وعلى راسهِ تاج مكتوب على اكليلهِ "يعيش ملك الحرية" وكانت عيناهُ تتناثر شررًا وهو عاقد الحاجبين مقطب الوجه بحيث يتضح للناظر كونهُ منفعلاً بنوبة عظيمة من الغضب لامور تدخل في سياستهِ وكان شاخصاً في نقطة من الافق يتصاعد منها

التمعن حتىٰ تلاعبت يد الاضطراب في جهاز الحياة ومالت الاعضاء الى الارتياح ولم ازل فريسة ترتعد بين مخالب تلك الانفعالات الى ان اخذتني سنة المنام وانفتح لدى اعيني مرسح الاحلام

الفصل الاول

الحلم

ولما غمرتني لجج الرقاد وجدت ذاتي اتخطر في برية واسعة وكان يظهر لي عن بعد غابة عظيمة ذات أشجار ضخمة عالية باغصان متكاثفة الاوراق ملتفة بعضها على بعض بنوع انهُ لا يمكن لاشعة الشمس أن تخترق قبابها الشاهقة الى كبد السماء لكثرة تلبدها الشديد وهي تفرش على الارض بساطًا ثخينًا من ذلك الظل الذي لا يتقلص وبعد أن أجهدت المسير الى أن تبطنت هذه الغابة رأيت نفسي من ثم محاطًا بسكوت عميق يتخللهُ من فترة الى اخرى هدير مبهم يشبه دوي غدير متدفق ممزوج ببعض زمرات من وحوش الغاب أو تغريدات من طائر السماء فاخذت أتتبع هذا الصوت الذي يظهر كانهُ ينعي الم الوحدة او يبث شكوى الفراق ولم ازل مهتديًا بهِ الى اصلهِ وانا اركض تارة واتوقف اخرى الى ان انتهى بي الجد الى فسحة واقعة في جوف تلك الغابة ومحاطة بسياج من اعظم الاشجار وهناك رفعت نظري فرأيت السماء حينئذٍ واقعة على

عاينت برية فسيحة جداً ولاح لي عن بعد بيرق يخفق متقرباً فوضعت نظارة الاختبار وامعنت النظر فرأيت مكتوباً بهِ العلم يغلب وظهر لي حينئذٍ من ورائهِ جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة والمعارف الكاملة وهي تخطر متموجة بانوار اسلحة الحكمة والعدل متدرعة بدروع الحرية الانسانية والخلوص المحض ورأيت امام هذه الجيوش المظفرة تتراكض ممالك الظلام مع كافة اجنادها ناكصة على اعقاب القهقرة والانكسار وهي تزاحم بعضها البعض الى الهبوط في لجج العدم والاضمحلال حيثما لاحركة ولا صوت وهكذا مدَّت دولة العقل قوتها على كل بقعة ومكان وعمَّ السلام على كافة المسكونة وبينما انا مشمول بشمول هذه المرئيات التصوّرية في هذا العالم الفكري ثمِلٌ بما اشاهد في هذا المرسح الجديد الذي تتلامع بهِ شموس هذا العصر الحديث واذ قد ظهر لي من وراء الافق الغربي دخان كثيف مدلهم واخذت آذاني تسمع لغطاً اتياً من بعيد يشبه لعلعة رعدٍ شاسع وكادت حينئذٍ نواظري تستلمح تلامع اسلحة الحرب واذ داخلني روح العجب لما عاينت من المنقلب نادتني اصوات الاخبار الشائعة قائلت هوذا العالم الجديد (اميركا) قد رفض قبول شريعة التعبد ولذلك قد نهض ضد هذه العادة الخشنة بالاسلحة والنار اذ لم يعد يحتمل وجود بقية لدولة التوحش على سطح الارض وها دخان المواقع يبرقع وجه السماء وتموّجات رعود المدافع تنفخ في كتلة الهواء فعندما استوعبت هذه الحوادث ووفيت

الجرار تحت تلك الراية الخافقة الى ان مدَّ بساط سطوتهِ على كل اولئك الشعوب الذين كانوا يرفلون في حلل الثروة والنعيم فاحنى كل ركبة لدى تلك النار الفارسية واهال كل قلب بطلعة ذلك الاسد السائد وما برحت دولة فارس متمتعة بتلك الاراضي المحروسة وذاك الغنى الوافر حتى برزت عساكر مكدونية واحدقت من كل جانب تحت بيارق الاقدام والبسالة مثيرة لهب الحروب الهائلة الى ان ظفرت بجميع هاتيك الممالك واخمدت نار فارس ولم يزل الصولجان المكدوني يفرع تقدمًا ونجاحًا وميدان ملكهِ يتسع بالسطوة والاقتدار الى ان رأيت نسر الرومانيين صاعدًا من الشمال وهو يخفق باجنحة النصر والظفر منقضًا على جميع ما امتلكهُ المكدونيون من تلك الممالك الواسعة والبقاع الشاسعة وهكذا قد بسط جناحيهِ وخيَّم على العالم فانتصب لدى اعيني حينئذٍ قوس النصر الروماني في وسط ساحة الدنيا وعدت ارى جميع شعوب الارض تتقاطر افواجًا افواجًا وتمر تحت ذلك القوس العظيم اشارةً للخضوع والطاعة وما برحت تلك الدولة العجيبة تمتد وتتسع بالغلبة والجبروت الى ان انفطرت الى شطرين عظيمين فكان الاول شرقيًا والثاني غربيًا فاخذ ذاك يتعاقب بين ارتفاع وهبوط تحت رحمة الاقدار وهذا يتشعب ويتفرع الى جملة ممالك وولايات تحت اختلاف الاطوار ولم تزل تحصحص لاعين فكرتي تلك الظواهر الى ان انفتح اخيرًا لدى ابصار بصيرتي باب رحب مكتوب على قنطرتهِ العقل يحكم ومنهُ

مقدّمة

انني بينما كنتِ ذاتَ ليلةٍ ضاربًا في اودية التاملات العقلية وطائرًا على اجنحة الافكار المتبلبلة في جوّ الهواجس والاحلام التخيليَّة واذا قد انفتح لدى اعين خواطري مشهد عجيب تلعب فيهِ اشباح الاعصار السالفة وترنّ في هوائِهِ نغمات الشعوب الغابرة من وراء حجب التواريخ الخالدة فرايت ممالك العالم القديم تتعالى الى اوج العظمة والكرامة وترتقي الى سدرة الآداب والتهذيب حيثما ينتهي مجد الانسان النازل من الخليقة منزلة الاول من العدد فبينما كنت ارى المصريين مشتغلين بتهذيب الفلاحة والزراعة وتربية العلم وصناعة الايدي والاثوريين مجدّين في اختراع ظرافة المشادات والابنية والفينيقيين آخذين بتوسيع المتاجر وشق عباب البحار وتقريب صلة الهيئة الاجتماعية واذا راية فارس مقبلة من بعيد حاملة شمسها الساطعة واسدها الزائر وهي تخفق على رؤُوس جيش عرمرمي يتموَّج فوق صهوات الخيول الصاهلة التي كلما كانت تضرب بحوافرها اديم الارض كانت تثير غبارًا يلقي وخط الشيب على هامة الزمان وينسج بردهُ الاشهب لجسد التاريخ وهكذا لم يزل يتقدم ذلك الجيش

كتاب

غابة الحق

للفاضل الشهير فرنسيس فتح الله مراش

طبع بمطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس
في بيروت سنة ١٨٨١